بسم الله الرحمن الرحيم

(الصلاة من كتاب الله)

-الباب الأول: شواهد-

بينات عن الصلاة من كتاب الله

-فصل: مبدأ الاختيار-

شاهد أول: {قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين}

معرفة أمر الله من كلام الله هو مطلوب أهل محبة الله والإيمان به. إلا أنه جرت سنّة الأولين إما بخلط وإما بتحريف كتاب الله بغيره، إما عن طريق إضافة شيء والإلزام به وإما عن طريق تقديم ما أخّره الله وتأخير ما قدّمه الله وبطرق كثيرة. الصلاة جرى عليها هذا، حتى ضاعت الصلاة القرآنية وحلّت محلّها الصلاة التقليدية عند أكثر الأمّة بدرجة أو بأخرى.

أمامنا طريقان:-

الطريق الأول:

طريق مَن يريد مراعاة سلفه من الشيوخ والفقهاء الذين علّموه هذه الصلاة التقليدية على أنها هي الصلاة الوحيدة لا غير وأن القرءان ليس فيه بيان الصلاة حقاً وتفصيلاً أصلاً ولا يمكن بحال من الأحوال الاعتماد حصراً على كتاب الله والاستنباط منه لمعرفة أحكام الصلاة.

أَو مَن يريد مراعاة تلاميذه ومَن يأخذون عنه ويخشى من التصريح بالأمر بحسب ما يفهمه ويعرفه من آيات الله فيخشى أن ينفضّوا عنه ويتركوه إذا صرّح لهم بذلك.

أو مَن يريد مراعاة إخوانه في الفرقة ونظراؤه من أهل العلم والنظر والمشيخة ويخشى انتقادهم بل تكفيرهم له إن جاء بغير الصلاة التقليدية على أنها الصلاة الإلهية الحقيقية.

أو مَن يريد مراعاة خاصّته والذين بايعوه على الطريقة والسلوك وورثته ومَن يأمل أن يحفظوا له كتبه وفكره وأوراده وأدعيته من بعده فيخشى من الانفراد بنفسه إن أعلن لهم هذا الأمر.

أو مَن يريد مراعاة كونه جزءاً من الأمّة أو الطائفة بالمعنى الوهمي أو الحزبي ويعتبر صورة الصلاة التقليدية مَن كسرها أو جاء بغيرها فقد خرج من ملّتهم وانفصل عنهم.

أو مَن ينظر في ماضيه وعدد الصلوات التي قام بها فيصعب عليه الاعتراف بأنه لم يكن يصلّي الصلاة القرآنية، أو ينظر في تآليفه وتعاليمه ومواعظه عن الصلاة التقليدية وكل ما قام به في سبيل نشرها والقيام بها والمنافحة عنها ثم لا يهون عليه الاعتراف بأن كل هذا كان خطأً أو تقصيراً أو ليس خالصاً على أقلّ تقدير.

أو مَن يرغب في المحافظة على قدرته على التواصل وتبادل المعرفة والفقه والرأي داخل جماعة معينة من الناس الذين سيقطعون كل تواصل معه وتبادل رأي وحوار في حال عرفوا رأيه الجديد في الصلاة وخالفهم في أمرهم.

أو مَن يحب الصلاة التقليدية وشؤونها ويرتاح لها شخصياً فيصعب عليه معرفة أنها ليست هي الصلاة القرآنية التي أمر بها الله تعالى، وأن التقليدية وإن كان لها وزن فذلك بدرجة ثانوية وعرضية وليست هي جوهر الصلاة القرآنية.

هذه الأصناف الثمانية الكلية من الناس كلها ستختار طريق الجمود على التقاليد بدون اعتبار حقيقي لكتاب الله.

الطريق الآخر: طريق الذين لا يبالون بكل ما سبق إن خالفت وسيلة تحصيله ما يفهموه من كتاب الله تعالى. فأهل هذا الطريق يقدّمون اتصالهم بالله واتباعهم رسوله وبذلهم جهدهم في كسر العادات ومخالفة المعتاد واكتساب سنن جديدة ذات روح حية وإحداث صلات جديدة مع أناس لهم قلب منفتح على تعلّم كتاب الله كما هو.

باختصار: لابد من اختيار طريق الشهوة أو طريق الشريعة.

اعتراض: كلامك هذا يفترض أن الصلاة التقليدية من الشهوة وليست من الشريعة، لكننا نقول أنها من الشريعة وتركها هو الشهوة. فأنت جئت بدعوى ونحن لنا دعوى تقابلها.

الرد: يفصل بيننا كتاب الله. أنتم تقولون أن هذه الصلاة التقليدية ليست في كتاب الله بكل تفاصيلها، بل تجعلون خلوّ القرءان منها حجّة على نقص القرءان من حيث التفاصيل واحتياجه

إلى مروياتهم وحكمها على الكتاب وبقية التراث الضخم الذي بُني على أساس نقص أو عدم تفصيل القرءان. كلامكم هو الحجّة عليكم. تقولون أن الله فصّل كتابة الدَّين والمحيض وقصص فرعون وخصص سورة لأبي لهب وشرح في آيات كثيرة أحكام الطلاق والنكاح وذكر الصلاة في عشرات المواضع، وكثير غير ذلك مما يعرفه كل مطالع للقرءان ولو سطحياً ولو لم يكن مؤمناً به، ثم مع ذلك تزعمون أن الله تعالى ترك تفصيل الأمر الوحيد الذي بدونه لا يُقبَل دين ويميّز بين الكافر والمؤمن ويهلك بسبب تركه أو التقصير فيه الإنسان ولو أقام كل حكم غيرها وآمن وصدّق بكل شيء، لو كتب إنسان كتاباً فيه مثل هذا لرميتموه بالنقص والخلل بل وبالسفه، وتنتقدون الكتب والمحاضرات الإنسانية بأقلّ من هذا بكثير، لكن مع ذلك ترمون الله تعالى بما تكرهون نسبته إليكم وتنسبون لكتابه ما لا تنسبونه لكتبكم. وما أسوأ هذا الحكم والتقدير.

الصلاة القرآنية هي قراءة القرءان في أوقات معينة حددها الله، فالأولى صلاة العشاء وهي {لدلوك الشمس إلى غسق الليل} وسماها الله {صلاة العشاء}، والثانية صلاة الفجر {وقرءان الفجر} وسماها الله {صلاة الفجر}. ثم ذكر صلاة الجمعة {إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة}، وذكر تهجد الليل بالقرءان وبيّنه تفصيلاً في سورة المزمّل وغيرها {ومن الليل فتهجد به نافلة لك} وبيّن ذلك في المزمّل {فاقرأوا ما تيسّر من القرءان}. هذه خلاصة الصلاة القرآنية. ولها تفاصيل أخرى ليس هذا محلّ بسطها لكن ما ذكرناه هو الأصل. لا توجد أي تفاصيل أخرى جسمانية واجبة، فالقصد هو التدبر والتذكر والتعقل والتقوى والشكر والانتهاء عن الفحشاء والمنكر ونحو ذلك من مقاصد بينها الله تعالى. والشيء الوحيد المشار إليه بالنسبة للبدن هو قوله {يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم} وهو الاطمئنان، وفي حال عدم الاطمئنان قال {فرجالاً أو ركبانا فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة} وهذه بالنسبة لمن يخشى خروج الوقت لأن {الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا}. فالمدار على قراءة القرءآن والوقت، والوقت في الفريضة إما عشاء وإما فجر، والوقت في النافلة الليل بعد الهجود وهو النوم وتجافي الجنب عن المضجع. والقراءة ما كان بتدبر وتذكر وتعقل وتعلّم {حتى تعلموا ما تقولون} {كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب}. وقراءة القرءان في الصلاة هي السبع المثاني أي الفاتحة وشيء من القرءان العظيم أو حتى الفاتحة وحدها فإنها جامعة وهي سورة الصلاة بنفس نصّها لأنها السورة الوحيدة التي ليس فيها إذا ذكر ودعاء لله تعالى خلافاً لكل سور القرءان الأخرى بلا استثناء حيث بقية السور إما سور ذات خبر فقط كالقدر والمسد أو سور ذات خبر وأمر كبقية السور. هذه الخلاصة والسلام.

الصلاة التقليدية، كما يعرفها الكل وتجدها في كتب المرويات، مدارها على حركات الجسم. نعم وهنا النعمة الكبرى على هذه الأمّة ولله الحمد، في الصلاة التقليدية يوجد الجوهر القرآني وهو قراءة القرءان والوقت، أيضاً توجد الفاتحة وسورة من القرءان، والاطمئنان. فهذا القدر محفوظ. لكن أبعاد العقل والقلم والدراسة والتغيير والتي سنبينها لاحقاً إن شاء الله غير موجودة عادةً وبالنسبة للغالبية العظمى من المصلين ولأسباب راجعة إلى نفس هيئة الصلاة التقليدية وشؤونها وطريقة أدائها وليست بسبب المصلّي ذاته، بالإضافة إلى أنه ليس في كتاب الله أن مَن لم يقوم بهذه الهيئة المعروفة ذات الحركات والألفاظ فإنه لا يُعتَبَر مصلياً مقيماً للصلاة كما أمر الله فهذه الإضافة بدعة محدثة ووقع ولا يزال يقع بسببها الكثير جداً من التكفير والاختلاف والافتراق في الدين والعدوان وبسط اللسان واليد بالظلم والإثم منذ بدء انتشار هذه البدعة إلى يومنا هذا ونجد آثار ذلك في الروايات نفسها التي نقلت هذه الهيئة على أنها هي "الصلاة" المأمور بها في كتاب الله وهذا أيضاً سنفرده إن شاء الله بالبحث لاحقاً. لكن يكفينا أمر واحد وهو أن الله تعالى لم يذكر في ثلاثة أسطر ما ذكرته بعض روايات المذاهب عن أصل حركات الجسم في الصلاة والذي هو على قولهم جوهر وركن أصيل للصلاة. ويكفي هنا التمثيل برواية واحدة وهي منسوبة للرسول وفيها قوله "إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع حتى تعتدل قائما ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم اجلس حتى تطمئن جالسا ثم افعل ذلك في صلاتك كلها فإذا فعلت هذا فقد تمت صلاتك وما انتقصت من هذا شيئا فإنما انتقصته من صلاتك" أقول: لو كان الله تعالى يريد هذا فأي صعوبة في أن يقول هذه الكلمات في كتابه وقد قال ما هو أعمق وأصعب وأعقد منها في أمور هي ظاهراً من أمور الدنيا الفانية وشيء من المال مثل آية الدَّين أو حتى آية المحيض والخمر، فهل حثالة الدنيا الفانية أولى التفصيل من الصلاة عند الله- حسب توهمهم طبعاً-من تبيان الصلاة وهي من السهولة بمكان كما رأيت في النصّ المنقول سابقاً. هذا أمر أولاً ليس في الكتاب، وثانياً غير معقول بنفسه، وثالثاً يناقض طريقة القرءان في البيان وتفصيل الآيات تفصيلاً والإتيان بالبلاغ المبين وإن احتاج إلى استنباط وجمع وتعقل فليس كلامنا في كونه كله سطحياً بل ليس القرءان كذلك أصلاً لكن أن يقال بأن الله تعالى أراد هذه الهيئة التي شرحها النصّ ويقوم بها المسلمون ومَن لم يأتي بها فليس من المصلين فهنا محل الكلام. نحو ثلاثين كلمة فقط تكفي لبيان هذه الهيئة، وفي القرءان أكثر من سبعة وسبعين ألف كلمة، فمَن زعم أن الله لم يجد مكاناً في هذه السبعة والسبعين ألف كلمة ليضع فقط ثلاثين كلمة والتي بدونها لا قيمة لدين وإيمان وأعمال المؤمن ولو أقام السبعة والسبعين ألف كلمة علماً وعملاً، فقد أعظم على الله الفرية.

الصلاة القرآنية في طرف، والصلاة التقليدية حسب التعاليم الفقهية في طرف آخر. وهذا ليس كلامنا فقط، هذا كلام أصحاب الصلاة التقليدية الروائية، فإنهم حكموا بالقتل على مَن لا يقوم بها أو بالتكفير على أقلّ تقدير وبجهنّم جزماً وكانوا ولا زالوا يعلّمون الآباء أن يضربوا أولادهم ليقوموا بها ولا يخفى على قارئ القرءان أن كل هذا ليس من كتاب الله في شيء.

إذن حين نقول أنه لابد من اختيار إما طريق الشهوة وإما طريق الشريعة، فهذا حق.

-فصل: مبدأ الفردية-

شاهد ثاني: {يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون}

الميل للجماعة والكثرة أمر شائع في النفس البشرية من حيث بشريتها لا من حيث روحانيتها. فإن الروح {من أمر ربي} وتنظر إلى ربها ولو صار ما صار للبدن والأمور الظاهرية في الدنيا الفانية. ولأن النفس قائمة ما بين قابلية التزكية بالروح والتدسية بالبدن، فتجد الناس أحياناً ولو كانوا مَن كانوا في علو الكعب في الروحانية يقعون في مصيدة {تخشى الناس والله أحق أن تخشاه}.

من آمن بالله ورسوله وكتابه الذي فيه الرسالة، فعليه أن يؤسس أمره ويجاهد نفسه حتى يقيم دينه على أساس الفردية، أي يفترض أنه فرد مسؤول عن نفسه فقط لأن هذا هو الحق، فأنت {لا تُكلَّف إلا نفسك}. فإذا تعلمت كتاب الله واهتديت به ولو كانت وحدك فأنت أمّة {إن إبراهيم كان أمّة}، فالعبرة ليست بالانفراد ولا بالكثرة، لا الإعجاب بالنفس ولا الإعجاب بالكثرة، كلاهما مذموم فالأول من شأن إبليس الكافر والثاني من شأن الكفرة الجهلة. المقصد هو معرفة الحق بالبرهان، ثم اتباعه ومجاهدة الناس لقبوله. لكن إذا عرفت شيئاً ولك حجّة فيه، فهذه مسؤوليتك الوحيدة عند الله ولن تُسأل عن سبب انفرادك أو تبرير كثرة من معك، كل ما يهم هو هل اهتديت أم لا ثم الله يفصل بين الناس يوم الدين.

الآن، دعوى أن ما علمنا وعملنا هو عين ما في كتاب الله هي دعوى لا يعجز عنها أحد، ويدعيها كل أحد. وهنا سنقتصر على موضوع الصلاة. في موضوع الصلاة أيضاً {عليكم أنفسكم لا يضركم مَن ضلّ إذا اهتديتم}. وهذا لا يعني أنه يجب عليك فرض وإكراه غيرك على

ما فهمت، ولا أنه يجوز لهم مثل ذلك معك، إلا أننا نجد في هذه القضية مثل قضايا أخرى كثيرة أن أصحاب ملّة الروايات الذين مالوا عن دين الآيات هم رؤوس الإكراه في الدين وعلى الدين وبالدين في الأرض كلها وهم أئمة هذا الشأن إلى اليوم، وفي باب الصلاة يكفي أنه يوجد إجماع في المذاهب الفقهية "الإسلامية" إما على قتل تارك صلاتهم وإما على حبسه فإن لم يتب فيُقتَل وإما شيء من هذا النوع وما يتبعه من التفريق بينه وبين زوجته وهلمّ جرّاً في قائمة الدم والإجرام. هؤلاء لا يؤمنون بقاعدة {عليكم أنفسكم لا يضرّكم مَن ضلّ إذا اهتديتم}، هؤلاء يريدون أن يجبروا الناس على ما يعتقدونه هم، خلافاً طبعاً لكل كتاب الله الناهي عن هذا النوع من التفكير والعمل بل حتى عن الشعور بالحزن على عدم اهتداء الآخرين بهدى الوحي فما بالك بهوى الرأي الذي على أساسه يفعل القوم ما يفعلونه. نحن نؤمن فكراً وشعوراً وسلوكاً بكلمة {إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون} ولا نجيز منع أي أحد لا في الصلاة ولا في غيرها أن يعبّر عن فهمه ورأيه ويمارس صلاته كما يعتقدها ويدعو إليها وينافح عنها بل نحن من أول مَن سيسمع له ويحاوره ويجادله بالتي هي أحسن بإذن الله، إلا أنك لن تجد مثل هذا عند ولا فرقة من فرق أصحاب ملّة الروايات الذين بمجرّد ما تكون السلطة بأيديهم يصبح الإكراه عندهم أسهل من شربة ماء بل لعله أوجب من شربة ماء.

الشعور بالوحشة بسبب الانفراد ليس حجّة لما تستوحش منه، وهذا أمر يقرّ به جميع المؤمنين من أي دين بل وغير دين. لكن أصحاب القرءان عنده ما هو أعلى وهو قول الله تعالى {عليكم أنفسكم} وهو خطاب مباشر لهم {يا أيها الذين ءامنوا}، فالله مع مَن اهتدى بالقرءان، والرسول مع مَن اهتدى بالرسالة وجمّع الناس بها وعليها وأمرهم بالاستمساك بها وهو الإصلاح الذي قال الله فيه {والذين يُمسّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين}. فالمهتدي بكتاب الله معه الله وملائكته، وهو مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، بالنفس اليوم ومطلقاً غداً يوم يقوم الأشهاد. مقاومة شعور الوحشة هذا من الجهاد في سبيل الله، بل هذه الوحشة هي واحدة من أكبر أسباب إعراض أكثر الناس عن دين الله مطلقاً، ويطلبون مودة الناس في الحياة الدنيا وحفظاً لعواطفهم ومصالحهم فيها ولو على حساب الدين.

اعتراض: كيف سأقنع كل المسلمين وغير المسلمين بهذا الفهم لكتاب الله والشريعة في مسألة كبيرة مثل هذه.

الرد: أولاً {عليكم أنفسكم} وحين تستقر وتتذوق وتجرّب هذه الحياة الجديدة على أساس عملك بأمر الله، حينها وبعد أن ترسخ قدمك فيها وتعرفها وتدرك المسألة تجريبياً لا فقط نظرياً،

حينها يمكن أن تنتقل إلى مستوى الدعوة والمجادلة. فالإيمان والعمل قبل التواصي والدعوة، {أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون}.

ثم يكفيك إعطاء البينات، {لتبيّن للناس ما نُزّل إليهم}، ولا تكتمها فإن من يكتمها {فإنه آثم قلبه}. فإذا فعلت هذا وكان بلاغك مبيناً، فقد تمّ عملك وشكرت ربك على نعمة تعليمك، {وما على الرسول إلا البلاغ المبين}. وأما مَن يقتنع ومَن لا يقتنع، فلا ليس لك ولا هو تكليفك بل الاهتمام بمثل هذا هو بحد ذاته عصيان لبعض الأمر الرباني كما في قوله {لا تحزن عليهم} والآيات الأخرى في ذات الموضوع من أبعاده العقلية والإرادية والشعورية المختلفة.

حتى إن تنزّلنا أكثر، ستجد أنك الآن ومهما كانت تفاصيل صلاتك التي تصلّيها، فإنك تصلّي صلاة لا يرضى عنها الكثير جداً من المسلمين، أيا كان اختيارك ومذهبك. بل جزماً أنت تقوم بأمور يراها غيرك بدعة سيئة أو لا تقوم بأمور يرونها فريضة أو واجبة أو سنة مؤكدة أو غير ذلك. وسنبيّن إن شاء الله في فصل لاحق تفاصيل مهمة عن اختلافات المذاهب الفقهية الإسلامية في هذا الأمر حتى ترى أن توهمك أنك تصلي الصلاة "المُجمَع عليها" باطل قطعاً وبجميع الموازين وهذا ليس سراً بل معروف مشهور بل محسوس تراه في اختلاف المسلمين في صلاتهم من أول مسألة فيها إلى آخر مسألة فيها تقريباً وتجده في اختلاف مساجدهم وتنازعهم وافتراقهم وتباغضهم وتبديع بعضهم بعضاً وتكفير بعضهم بعضاً وأحياناً العدوان على بعضهم بعضاً بسبب ذلك والأمثلة في هذا الباب كثيرة جداً والقصص والوقائع كثيرة أيضاً عبر التاريخ وإلى اليوم.

بل إذا دققت ستجد أن الصلاة القرآنية هي الوحيدة التي يمكن أن تجمع المسلمين وتمنع الافتراق القبيح. لأن جوهرها يقوم به الكل في جزء من أجزاء صلاتهم التقليدية، لكن الإضافات التي أضافوها على ذلك الجوهر قد أعاقت ظهوره وتمام نوره من جهة ومن جهة أخرى فتحت أبواباً كثيرة للنار والتكفير والتبديع والتفسيق والاختلاف السيء الواضح السوء. صاحب الصلاة القرآنية يمكن أن يصلّي في كل مسجد في مشارق الأرض ومغاربها بدون أن يشعر بأنه في بيت غير بيته، لكن صاحب الصلاة التقليدية لا يستطيع ذلك ولا يشعر بأنه مع أمّته حين يكون مع أي مسلم مؤمن بالله ورسوله وكتابه. القرءان حبل جامع لجميع المسلمين، لكن ما أضافوه عليه وأوجبوه هو مصدر الشرّ والكفر حتى صار بعضهم يضرب رقاب بعض وبعضهم لا ينكح بعضاً ولا يكلم بعضهم بعضاً إلى آخر القائمة السوداء لصفات الأعداء. إذن، ليس على صاحب الصلاة القرآنية أن يفكّر في أصحاب الصلاة التقليدية، بل على أصحاب الصلاة التقليدية الرجوع إلى الصلاة القرآنية، فهذا خير لهم في الدين عند الله وفي الآخرة بل وفي الدنيا.

بل وأزيدك. إذا عرفت الصلاة القرآنية ستجد أن الروايات نفسها المنقولة عن النبي ومن معه، إما تصبح مفهومة وإما تصبح أكثر وضوحاً وإما يمكن حلّ إشكالاتها والاختلاف فيها. خذ مثلاً الحديث القدسي {قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين} ثم ذكر سورة الفاتحة، فهنا تجد تصريحاً بأن الصلاة ذات {نصفين} وهي الفاتحة بتمامها فقط، فلو كانت الفاتحة جزءاً من أجزاء الصلاة لما كانت الصلاة مقسومة {نصفين} كما هو نصّ رب العزة جل جلاله في الحديث القدسي الصحيح المشهور حسب موازين أهل الرواية، بل لوجب أن تكون الفاتحة مثلاً جزءاً من عشرة أجزاء أو قسماً من ثلاثة قسماً أو نحو لك لأن التكبير جزء والقيام بالبدن جزء ودعاء الاستفتاح جزء والفاتحة جزء وسورة بعدها جزء والركوع جزء والقيام جزء والسجود جزء وهلمّ جراً. لكن حين تعرف الصلاة القرآنية ستجد أن تسمية الفاتحة بالصلاة حق لأنها سورة الصلاة وفيها القرءان كله. كذلك ستجد حديثاً يقول {لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب} وحديثاً آخراً يقول أن الذي لا يقرأ بأم القرءان فصلاته {خداج} يعني ناقصة، ونحو لك مما يعزز كون الفريضة قراءة الفاتحة ثم ما فوقها زيادة خير على خير ونور على نور. وكذلك مثلاً حديث {ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها} فإنه صريح في كون العقل ثمرة الصلاة، وأين العقل في غير القراءة المركّزة وقد شهدنا إنساناً يقرأ القرءان للتعقل وبقصد التعقل فيتغيّر ويستنير ويخشع لله تعالى أو على أقلّ تقدير من بين كل مائة ستجد تسعة وتسعين هذا حالهم، بينما أصحاب الصلاة التقليدية ممن القراءة عندهم هي مجرد ألفاظ يجب الإتيان بها في خضم حركات وشكليات بدنية وتكرار كثير يشلّ الفكر ويُذهب رونق العقل ويُدخل الملل والسهو عند الغالبية العظمى من المصلين بهذه الهيئة حصراً فهؤلاء العقل عندهم إما منعدم بسبب الصلاة وإما في الشاذ النادر الذي لا يُقاس عليه ويكون بسبب حضور عقله في القراءة أو نحو ذلك من الأذكار والتسابيح التي هي أوامر قرآنية أصلية وليس بسبب الحركة الصورية البدنية، فالصلاة الحقيقية أمر حين تدخل فيه حقاً ستخرج منه وفيك إما زيادة نور أو قلّة ظلمة، بينما الصلاة التقليدية قد يصلّيها الإنسان أربعين سنة وهو في آخر يوم مثل ما كان في أول يوم وتستطيع أن تجد الناس يومياً ومن شتّى المذاهب والفرق يصلّون هذه الصلاة التقليدية وهم على ما هم عليه لكن انظر ماذا سيحدث في الواحد فيهم لو صلّى الصلاة القرآنية لتسعة أشهر فقط، بل ستة بل شهراً واحداً بل أكاد أقول يوماً واحداً. القرءان هو جوهر الصلاة ومركزها، فحين يُعطى التركيز كاملاً يُنتِج بإذن الله، لكن حين يلهو القلب ويلهو البدن فحتى إن تلفّظ أو سمع القرءان فلن يُنتج شيئاً، ولهو القلب بسبب نفس ما وضعوه من أركان وشروط للصلاة وكونها ذات رتابة وتكرار وشكليات وحركات البدن وتعبه وتغيره والتركيز عليه أو على الأقلّ إشراك البدن مع العقل في العمل مما يشتت الوعي ويبطل التأمل

والنظر في كلام الله ذاته لذاته، ولذلك لا تجد حتى أصحاب الصلاة التقليدية حين يدرسون كتب عقائدهم ومذاهبهم إلا ويقومون بقراءتها كما كان ينبغي أن يفعلوا ويعلّموا الناس أن يفعلوا في صلواتهم مع كتاب الله أي ستجدهم إما يقرأون قياماً أو قعوداً وهو الأصل وإما على جنوبهم أو وهم يمشون، ستجد رغبة بعد الانشغال بأي صوت أو حركة أو ازعاج حتى يتم تركيزهم وحضور عقلهم وفهمهم، نفس هذا الأمر الذي كان ينبغي أن يقوم به الكل مع القرءآن يومياً تركوه فالحجّة عليهم من هذا الوجه أيضاً. على هذا النمط، ستجد الروايات نفسها أكثر معقولية بسبب الصلاة القرآنية عموماً، ولن تُنتج إشكالاً عند من يضع كل شيء في نصابه حسب قيمته القرآنية.

-فصل: مبدأ التنوير-

شاهد ثالث: {ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير}

المقصد من القرءان التعقّل "لعلكم تعقلون" والتفكر "لتبيّن للناس ما نُزّل إليهم ولعلهم يتفكرون" والتدبر "أفلا يتدبرون القرءان" "ليدبروا آياته" ونحو ذلك من أمور يمكن تلخيصها لتسهيل الشرح بكلمة الفهم. القراءة تتضمّن معنى الفهم، وإلا فليست قراءة معتبرة، فإن القراءة فيها معنى الجمع والحمل كما قال الشاعر "لم تقرأ جنينا" فالقراءة تُغيّر حالة النفس كما قال تعالى "اقرأ وربّك الأكرم. الذي علّم بالقلم. علّم الإنسان ما لم يعلم" فما لم يصحب القراءة العلم ويأتي كثمرة لها ويُشعر القارئ بحضور الله معه "اقرأ وربّك" "اقرأ باسم ربك" فليست هي القراءة التي تدل عليها القرءان، ومنا ذكر في سورة العلق "أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلّى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى" فذكر القراءة ثم الصلاة وربطها بأمرين الأول ما يكون عليه المصلّي في نفسه والآخر ما يأمر به غيره ومن هنا توجد قراءة للنفس وقراءة للغير، ثم زاد الأمر بياناً فقال "قد أفلح مَن تزكّى. وذكر اسم ربّه فصلّى" فقدّم التزكية على ذكر الاسم والصلاة كما قدّمها على تعلّم الكتاب والحكمة في آية أخرى، وفالتزكي عن أمور سيئة شرط ثم يدخل الإنسان في ذكر اسم ربه وذلك بالبسملة التي هي فاتحة سور الكتاب كله ثم تدخل في الصلاة التي هي القراءة أي قراءة الآيات القرآنية ذاتها. ومن هنا فرق بين قراءة الصلاة وقراءة غير الصلاة، لأن الصلاة لابد فيها من ذكر اسم ربك "اقرأ باسم ربك" ومعية ربك "اقرأ وربك"، فهذه القراءة هي التي يكون فيها القارئ

مُصلّيا بمعنى متصلاً بربه وموصولاً بكلامه وكذلك بمعنى المصلي في اللغة الذي هو التابع للمُجلّي في السباق لأن القارئ يكون تابعاً لربه فربّه المتجلي المُجلّي له الأمور وهو المصلّي التابع الجاعل عقله تابعاً لكلام ربه.

الجهل ليل، العلم نهار. الجهل من شأن العبد، العلم من شأن الله، قال "الله الغني وأنتم الفقراء" وذلك في كل سمة كمال فإن الله غني هي له بالأصالة والعبد فقير فما به من نعمة سواء كانت وجود أو علم أو حياة أو قدرة أو ما كان فهي من الله تعالى. في الصلاة ذكر لله " أقم الصلاة لذكري" ومن هذا الذكر تذكّر العبد مقام فقره ومقام ربه الغني المتعالي، وكذلك تذكّر نعمة ربه عليه وخلافته إياه في ما يفيضه عليه ويعطيه له. فهنا أمران، الأول تذكّر الفقر بالذات، والثاني تذكّر الغنى بالله.

في الصلاة القرآنية كلاهما حاضر. فإن القارئ بمعنى المتفقه المتفهم الدارس لكتاب الله، يتذكر جهله وفقره الأصلي حين يرى أنه مفتقر إلى كلام الله لتحصيل العلم وكذلك حين يرى الفرق ما بين مستوى عقله ومستوى كلام الله العالي وكذلك حين يرى توقف عقله عن فهم الآية ثم يرى كيف يمدّه الله بالنور والفهم "ففهمناها سليمان" فيلج فيه نور ربه فيشرق به أرض قلبه.

أما في الصلاة التقليدية، فإنها صلاة تفريغ وثبات. فهي تفريغ من حيث أنها تفرغ العقل من الفكرة بما فيها من حركات وتكرار للكلمات، وهذا وإن كان ينفع بالنسبة لمن يريد الدخول في قراءة القرءان الذي هو الصلاة الأصلية، فإنه يكون إعداماً لعقل مَن الصلاة كلها عنده هي هذه الصلاة الصورية. كذلك فيها ثبات، لأن المصلي بالتقليدية يعرف مسبقاً بالضبط كل ما سيقوم به وما عليه القيام به ويعرف بماذا سيدخل وبماذا سيخرج من حيث أنه ليس عليه إلا القيام بهذه الحركات والتلفظ بالكلمات وإذا به قد "أقام الصلاة" حسب اعتقاده، ومع الوقت تأخذ هذه الهيئة النمطية الرتيبة صورة جامدة في الذهن وتصبح عادة وحركة آلية لاشعورية لاواعية، ومهما قيل بعد ذلك في المواعظ الجوفاء عن وجوب الخشوع في الصلاة والبكاء والحضور وما أشبه والذي أقصاه كما ترى نوع من الأمواج العاطفية العمياء على أحسن تقدير في العادة فإنه لا يُسمن ولا يغني من جوع لأنه ضدّ التيار الطبيعي لنفس صورة الصلاة، فلا يمكن أن تضع النار تحت القِدر ثم تدعو ما في القدر إلى البرودة كما أنه ليس من حقك عقلياً ولا أخلاقياً أن تخاطب قِدراً موضوعاً في الثلاجة بأنه يجب عليه أن يتحرّك داخلياً ليجد حرارة الصحراء.

حين تقرأ القرءان، القراءة بالمعنى السابق، فأنت إما تعقل وإما لا تعقل، إما تستفيد وإما لا تستفيد، إما تجد حضور الله معك وتأييده لك بروح القدس والروح منه والإلهام بالفهم وإما لا تجد، وحين لا تعقل ولا تستفيد ولا تجد فإنك تعرف ذلك يقيناً من نفسك وترى الظلمة والليل القلبي وتعرف أنك لم تفهم القرءان وتنتفع به. لا مجال للوهم هنا. كأن تقرأ {يا أيها المزمّل} ثم تقف عندها فتقول: ما معنى المزمّل؟ وما معنى النداء به؟ وما علاقة المزمل بقيام الليل؟ وما وما وما وبقية الأسئلة الكثيرة والسؤال مفتاح العلم، فإما أن تجد فتحاً مبيناً وتعرف هذه الأمور أو تعلم شيئاً منها وإما أن لا تعلم، وإن لم تعلم قد تسأل أهل الذكر وقد تقول "ماذا أراد الله بهذا مثلاً" أو "ماذا قال آنفاً" ونحو ذلك. فالصلاة القرآنية فرقان ما بين المؤمن والمنافق، والمؤمن والكافر، والعالِم والجاهل. هي ميزان حقيقي يوزن به الناس ويتبيّن ذلك لهم ولغيرهم. "أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها".

أما الصلاة التقليدية فليس فيها شيء من ذلك. أخبروهم أن أركان الصلاة قيام وركوع وجلوس وسجود وتلفظ بالفاتحة وسورة والتسبيح والتشهد والسلام والتكبير، ونحو ذلك. وهذا كله تستطيع أن تقوم به إن شاء الله بدون أن تعقل شيئاً، بل تقول وتفعل وعقلك يسبح في أي موضوع آخر، كما روي عن بعضهم أنه قال "إني أجهّز جيشي وأنا في الصلاة" أو ما أشبه، فنعم تستطيع وأنت في هذه الصلاة الحركية اللفظية النمطية الثابتة أن تجهز جيشاً وتجهز قائمة تسوق وتسبح في ألف خيال وخيال بدون الإخلال بشيء منها. لكن في المقابل، لا تستطيع أن تقرأ القرءان وتفعل مثل ذلك "ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه" لأن الصلاة القرآنية صلاة قلبية، والقلب له التعقل والتفقه كما قال الله، فيستحيل أن ينشغل بالأمرين معاً فإذا دخل في أمر خرج من الآخر في عين لحظة دخوله فيه. وكذلك مثلاً الرواية المنسوبة للنبي "لا صلاة لحاقن" فهذه لا تنطبق على الصلاة التقليدية لأن الحاقن والغاضب وأيا كان من مشاغل البدن والذهن يمكن أن تكون قائمة بالإنسان ويقيم الصلاة التقليدية بدون الإخلال بشيء منها وعلى مرأى من الجميع، لكن الصلاة القرآنية لا يمكن أن يقيمها حاقن ولاحظ الخبر "لا صلاة لحاقن" وليس "لا تصلّ وأنت حاقن" فالحديث خبر عن واقع وليس أمر بإيجاد شيء، وهذا الخبر مشهود صدقه بالنسبة للصلاة القرآنية وليس بالنسبة للصلاة التقليدية.

السؤال ليل، الجواب نهار. في الصلاة القرآنية يوجد سؤال وجواب بين العبد وربّه، وكذلك سؤال وجواب بين المتعلّم والمُعلّم، كما رأينا أن الصلاة تنقسم إلى نوعين صلاة تقيمها لنفسك

وصلاة تقيمها لغيرك، قال في الأولى "أقم الصلاة" وقال في الأخرى "كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة". ثنائية السؤال والجواب في النفس مثل ثنائية الليل والنهار في الآفاق.

{سخّر الشمس والقمر} القرءان شمس، والقارئ قمر يتلوه "اتلُ ما أوحي إليك من كتاب ربك" "والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها" فهو يتلوه بمعنى يتبعه ويأتي بعده ويأخذ منه كُلّ ذلك حق. الشمس حس ومنه السجود للشمس، لكن القمر نور "الله نور"، كلمات القرءان مثل الشمس لأنها محسوسة باعتبار ظهورها، لكن بدون فهمها وتفسيرها وتأويلها بوسيلة القارئ القمري فإنها لا تنير النفس والقلب بل تبقى على مستوى ظاهر الوعي ولا يعلم الإنسان منه إلا ظاهر حياته الدنيا. لذلك لابد من القراءة، "سنُقرئك فلا تنسى" فهذا في الصلاة التي تقيمها لنفسك "رب اجعلني مقيم الصلاة" فإن الله يُقرئك ويبيّن لك. ثم قال "وأن أتلو القرءان فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه" وقال "أقمت لهم الصلاة" وقال "فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون" فهنا النبي والرسول والقارئ بالله يكون خليفة الله في تعليم عباده "يعلمهم الكتاب والحكمة". المقصد من الصلاة جعل النفوس سماوية، نورانية، عقلية. وهذا نجده في الصلاة القرآنية.

أما في الصلاة التقليدية فمن الواضح أنه لا بيان وتبيين وشرح وتفصيل فإن الإمام يتلو ظاهر النص القرآني فقط، بل ويتلوه عادةً بنحو يمنع حتى السامع من تدبره وتأمله والتفكر فيه بحكم تخفيف الصلاة والسرعة النسبية فيها. ثم إن محاولة الإمام أو المصلي حفظ عدد وكمية الركعات يوقف عقله عن التأمل والاستغراق في الآيات وإلا سها في العادة فيحتاج إلى ضبط عقله حتى يركز على صورة اللفظ وصورة الحركة وكيفيات وكميات ذلك فيحول هذا بينه وبين المعاني والاستغراق والتوغل فيها بل وعادةً يحول بينه وبين قشور المعاني أيضاً. القراءة تطلب المعنى والمعنى يشترط الإخلاص في البحث عنه، وأما الصورة والشكلية فإنها عدو المعنى وضدّه وحاجب يمنع من الاقتراب منه. لذلك لا تستغرب من كثرة المصلين وقلّة العاقلين والعالمين والروحانيين والفاهمين كتاب رب العالمين، فإن هذا ليس عيباً في الصلاة القرآنية بل في الصلاة التقليدية حين تُتخذ بالنسبة للعامّة كالصلاة الوحيدة والأصلية ويرونها الفرض الوحيد بدلاً من أن تكون مثلاً مقدّمة تفريغ وتجهيز وإعداد للصلاة القرآنية التي هي قراءة القرءان بتعقل وتفقه ودراسة وتذكر وتدبر طلباً للعلم منه وتقرباً إلى الله به.

للنفس أجل مسمى وهو عمرها في الدنيا. والمقصد من حياتها الدنيا هو تحديداً التذكّر والتعلم والمعرفة والتعقل لآيات الله. فلا يوجد شغل أولى من الاستنارة بآيات الله للنفس في هذه

الدنيا. وهذا الاشتغال المقدّس هو الصلاة. ففي الصلاة شغل لأهل العقل الذي عرفوا الحكمة من وجودهم في الدنيا.

لكن أهل الصلاة التقليدية وما وضعه أصحابها في أذهان عامّة المسلمين بل وأكثر شيوخهم أيضاً، هو أنهم إن أقاموا هذه الصلاة فقد أقاموا عمود الدين ولم يبقَ بعده إلا مزيد فضل وزيادة لمن شاء ومعنى ذلك واقعياً هو ما تراه الآن في الأمّة من شبه هجر تام لدراسة القرءان، وإن درسه البعض فيكاد يكون دائماً بعين ومنظار المذهب والعقيدة بحيث لا يكاد يستطيع إلا القليل جداً النظر في القرءان مع تجريده واعتباره كما هو فقط بدون فرض آراء المذاهب والفرق عليه.

هذا التحوّل من مركزية الاستنارة بالآيات الإلهية إلى مركزية الشكليات الفقهية والعواطف العقائدية، تمثّل أيضاً بالتحوّل من فرضية الصلاة القرآنية إلى فرضية الصلاة التقليدية وصيرورة قراءة القرءان عملاً تطوعياً أو فرضا كفائياً أو فضيلة زائدة. بسبب الصلاة التقليدية صار القرءان نفلاً بعدما كان فرضاً، ودراسته فضيلة بدلاً من فريضة، والاستنباط منه استئناساً وتدعيماً للمذهب بدلاً من تأسيساً ومُعتَمَداً للقلب.

{وأن الله بما تعملون خبير} ما سبق من كلام عن الآفاق بليله ونهاره وشمسه وقمره وأجله، هذه كلها أمثال لعمل النفس الإنسانية ينبغي علينا الاقتداء بها والقياس عليها ومعرفة حالنا بالنظر فيها. النفس إما ستُفتَح لها أبواب السماء بعد الموت أم لا، والنفس السماوية ستُفتَح لها، والنفس ذات الشهوات لن تُفتح لها "وحيل بينهم وبين ما يشتهون" بعد الموت لمفارقة البدن الأرضي. قال الله "فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا"، فالصلاة عمل مَن تحقق به وقام به وأقامه وحافظ عليه منعه من اتباع الشهوات، وذلك لأسباب كثيرة أهمها فطري ذاتي وجودي وليس مجرد وعظاً لفظياً، لأن الصلاة تحوّل النفس إلى الجانب الروحي والعقلاني بذاتها بإذن الله "الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر"، فالصلاة من شأن الروح العقلي الأعلى كما أن الشهوة من شأن البدن الظلماني الأسفل. لذلك لما أضاعوا الصلاة اقترن ذلك باتباع الشهوات، فكلما ازدادت النفس من الصلاة قلّت فيها الشهوات، وكلما ضعفت فيها الصلاة زادت فيها الشهوات، كالميزان إذا ارتفع من جهة انخفض من الأخرى، "قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها". الآن لننظر بين المسلم الذي يصلي الصلاة القرآنية والمسلم الذي يصلي الصلاة التقليدية، في العادة، وسنرى أن الصلاة التقليدية لا علاقة لها أصلاً بالحقيقة في إحداث تغيير نفسي يمنع من اتباع الشهوات، لذلك قام بهذه الصلاة أنا هم من أعرق وأغرق الناس في بحار الشهوات بل والدماء والفساد والظلم

والطغيان، لكن كم من هؤلاء كان ممن يحافظ على الصلاة القرآنية ويداوم عليها انظر ولن ترى عادةً منهم أحداً وإن وجدت فقلّة نادرة، لأن الله قال "سأصرف عن آياتي الذين يتكبّرون في الأرض بغير الحق" وقال بعض العلماء أن معنى هذه الآية هو نزع فهم القرءان منهم أو حرمانهم من الفهم أو نحو ذلك، وهو كذلك. وأيضاً لأن نفس عملية قراءة القرءان والتوصّل بإذن الله إلى معانيه والفتح فيه يحتاج إلى نوع طهارة نفسية وقدسية عقلية بدرجة ما وإلا فلا يحصل، "لا يمسّه إلا المطهرون"، فيوجد حد من الطهارة بدون يُصرَف الإنسان عن القرءان، ثم بعد هذا الحد الذي يدخل به فيه كلما ازدادت طهارته ازدادت معرفته وفتحه بإذن الله "هم درجات عند الله" "يرفع الله الذين ءامنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات". لذلك الصلاة القرآنية حين تكون هي الفريضة المحفوظة فإن الفرد والجماعة سيميلون تلقائياً وعفوياً ومن داخل قلوبهم وبباعث من ربهم في نفوسهم إلى التطهر والتقدس والسلام والسكينة ونحو ذلك من الصفات المحمودة للنفس والمجتمع، وبخلاف ذلك حين تكون الصلاة التقليدية هي الفريضة كما هو الحاصل الآن فإن أفسد وأظلم وأفسق وأجهل المجتمعات لعلها تقيم هذه الصلاة أيضاً وكذلك الأفراد أصحاب السفح والسفك واللعنة أيضاً يقيمونها بل لعلك تحقر صلاتك إلى صلاتهم من هذا الوجه الصوري الشكلي الحنجري اللفظي إن كنت من أهل النظر إلى المظاهر والمحسوسات حصراً.

الحاصل: التنوير في الصلاة القرآنية وبها بإذن الله تصبح النفوس سماوية.

-فصل: مبدأ التحكيم-

شاهد رابع: {إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط}

افترض يا صاحب القرءان، وهذه الأمّة كلها المفروض أن تكون أصحاب قرءان، افترض أنه جاءك من أصحاب الصلاة التقليدية من أهل المذاهب الإسلامية خصمان أو أكثر عرضوا عليك مسألة من مسائل الصلاة التي اختلفوا فيها، وطلبوا منك كحامل لكتاب الله أن تحكم بينهم فيها، فكيف ستحكم بينهم بكتاب الله؟ هل تستطيع أصلاً أن تحكم بينهم بكتاب الله؟

ضع في بالك الآتي. لا تفترض جهلة وعوام هم الذين تخاصموا إليك. كلا. افترض أن أكبر المجتهدين من جميع المذاهب الفقهية السنية والشيعية والإباضية وغيرهم هم الذين جاءوا إليك. وقالوا لك {فاحكم بيننا بالحق} فمن أين ستأتيهم بالحق؟ لا تنسى أن هؤلاء كلهم

أصحاب روايات واجتهاد، بمعنى أنهم قد بحثوا في مروياتهم ونقّحوها وحكموا على الأسانيد والمتون وفرغوا من كل ذلك وجاءوا لك بالزبدة والثمرة من بحوثهم وقالوا لك مثلاً: أين نضع أيدينا في الصلاة {احكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط} فإنه حسب رواياتنا توجد أقوال، الأول أن نضعها على صدورها، الثاني تحت السرة، الثالث نسبلها بجانب الفخذ، الرابع نسبلها على الفخذ جهة الركبة، وهكذا بدأوا يعددون لك الأقوال في هذه المسألة حسب ما جمعوه من جميع مذاهبهم. وفعلوا معك نفس الأمر بالنسبة لجميع المسائل الفقهية التي اختلفوا فيها اختلافاً واسعاً بيناً متناقضاً. الآن ماذا ستفعل؟

إن قلت: لا أستطيع أن أحكم بينهم بكتاب الله لأن كتاب الله لم يفصّل هذه المسائل. سأقول: فهذه المسائل إذن ليست من كتاب الله وإلا فإن الكتاب المبين لا يخلق مشاكل ثم يعجز عن حلها على فرض أنه هو الذي خلق المشكلة وقد عرفنا أنه لم يخلقها بل خلقتها الروايات أو أصحابها وكيفية قراءتهم وفهمهم لها.

إن قلت: بما أن الكتاب لم يفصلها فهذا يعني أنها كلها صالحة في الجملة فليقم كل واحد بما انتهى إليه اجتهاده. سأقول: لكن الروايات وعامّة أهل فقهها لا يقولون بهذا بل يبدّع بعضهم بعضاً وقد يكفّر بعضهم بعضاً ويضرب بعضهم بعضاً بسبب تلك الاختلافات. والله قد قال "إن هذا القرءان يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون" فكيف لا يقص على المسلمين أهمّ وأكبر ما هم فيه يختلفون في أمورهم العملية العبادية وعمود الدين وأساس النجاة.

اللطيف أننا إذا نظرنا في جميع مذاهب المسلمين، سنجدهم يؤمنون بقراءة القرءان وحفظ أوقات الصلاة حسب ما ورد في الآيات ولا يردّ ذلك أحداً فيما نعلم من العلماء والفقهاء بل وعامّة المسلمين والمسلمات. فهذا القدر وهو القدر القرآني نجده جامعاً للأمّة. فنستطيع أن نحكم على الكل بكتاب الله بأن نقول: هذه الاختلافات الزائدة على القراءة والوقت لا قيمة لها ويجب الإعراض عنها ولابد من أن نقيم الدين جميعاً ولا نتفرق فيه بحسب ما جاء في الوحي الجامع للكل. فلا أعلم مذهباً إلا وجعل القراءة في الصلاة، وفي حال العجز عن القراءة جعلوا الأذكار من قبيل التسبيح ونحوه وهذا لأن لب القرءان هو ذكر الله وما هو على التحقيق إلا ذكر الله "إنما يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد" لكن حتى هؤلاء نظروا إلى قراءة القرءان كأصل. وكذلك الوقت بحسب ما ورد في الآيات من قبيل {لدلوك الشمس إلى غسق الليل}. فمسائل القراءة والوقت يمكن التحاكم فيها إلى كتاب الله. والاختلاف في كتاب الله إما شقاق بعيد وإما اختلاف تنوع يحتمله الكتاب ويقرّ به المنصفون من العلماء، فالأوّل ممنوع والثاني هو من مدلول الكتاب ولا يفرق بين الأمة. وأما من زعم أنه لا مناص من افتراق الأمّة وإن تحاكمت إلى

كتاب الله فهذا يكذّب بالوحي ويسفّه أمر الحق تعالى "أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه". التحاكم إلى الكتاب لابد أن يكون بشرط التحاكم إليه بحسب مدلول اللسان العربي "بلسان عربي مبين"، وبشرط عدم فرض رأي من الخارج عليه فهذا بديهي لأنه حينها لن يكون التحاكم إلى الكتاب بل إلى الكتاب مع الرأي المفروض عليه فهذا خلاف مقتضى الدعوة إلى الكتاب "دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم" فلابد أن يكون الكتاب هو الحاكم بيننا فلو جاء شخص بمفهوم من رواية وأراد تطبيقها على الكتاب فهذا يتحاكم إلى الرواية وليس إلى الآية فالشرط افتراض أنه لا يوجد إلا هذا الكتاب بين أيدينا وهو عربي مبين فلننظر فيه ونحتج به حصراً لنرى ما نخرج به ثم لننظر الفرق بين هذا التحاكم وبين ما يحصل الآن من تحكيم الروايات والتواريخ والآراء المستنبطة من مصادر متعددة غير كتابية.

التحاكم إلى الروايات لن ينفع في حل مسألة وتوحيد أمّة، فقد تحاكموا إليها عبر قرون وها نحن اليوم على ما نحن عليه. كذلك التحاكم إلى كتب الفقه ومجادلات الفقهاء فإنها أيضاً لن تنفع فلدينا مجلدات أولها في الأرض وآخرها لعله يصل القمر ومع ذلك بقي الحنفي حنفياً ولا يزال يبشّر بعض الأحناف بعضهم بعضاً بأن المهدي سيخرج ويحكم بالمذهب الحنفي وكذلك بقي الشافعي شافعياً والجعفري جعفرياً وهلمّ جرّاً. هذه تجربة فاشلة، مضى عليها قرون وثبت فشلها. الأمر الجديد هو الأمر العتيق، هو ما جاء به النبي سلام الله عليه وكان يحكم به "أنزلنا إليك الكتاب لتحكم بين الناس بما أراك الله" يعني أراك الله في الكتاب لاتصال آخر الكلام بأوله وإلا فلو كان يرى رأياً خارج الكتاب المنزل إليه لما كان في تصدير الآية بذكر إنزاله فائدة وعبرة، إلا أن يقال بأن إنزال الكتاب حوّل عقله بطريقة جعل رأيه أيا كان موافقاً لنور الكتاب فهذا أيضاً يقتضي أن يكون حكمه ورأيه موافقاً لما في الكتاب ولو في بطونه وأسراره والربط العميق بين مختلف آياته وموضوعاته وتأويله، على الوجهين لابد من التحاكم والرؤية بالكتاب المنزل والتعاون على ذلك فإن الله أكرم وأرحم من أن يدع الأمّة وهي تتحاكم إلى كتابه لمعرفة كيف تقيم أمره ودينه ودينها. "اتقوا الله ويعلمكم الله". فلنتّق الله بالتحاكم إلى كتابه والصدور في رأينا عن دراسته وحده ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها وما آتاها.

-فصل: نذير-

نذير: {ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين}

البينات التي يُجمع المسلمون أن الرسول جاء بها هي الآيات القرآنية. والقدر الذي يتفق الكل على أن مخالفته ظلم هو مخالفة القرءان. ولا أرى عالِما يعتقد بأنه يسع إنسان أن يُقدّم شيئاً على كتاب الله تعالى. من هذا المنطلق لننظر في الآيات ونتصل بها ولا نقطع صلتنا بها إما بالكلية وإما بوضع شيء آخر أجنبي عنها بيننا وبينها فنكون من المجرمين والعياذ بالله.

لم تزل هذه الأمّة مختلفة اختلاف تضاد وحرب منذ قرون، والإعراض بالكلية عن كتاب الله أو تسخير بيناته كمجرد أدوات بحسب الشهوة لدعم المذهب والفرقة هو النمط العام الذي سارت عليه. ليكن قرننا هذا قرناً جديداً نحيي فيه بينات رسولنا ونؤمن بما فيها ولو كانت النتيجة ما كانت. فإن الله لن يحاسب إنساناً لأنه تمسّك ببينات رسوله الثابتة، لكن سيُحاسِب يقيناً الذين أعرضوا عن الذكر وهجروا القرءان بدرجة أو بأخرى، "وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تُسألون".

-فصل: أصل محورية الصلاة التقليدية-

أرى من النظر في طبيعة الصلاة التقليدية وآثارها الواقعية في الأمّة وكذلك من النظر في الروايات المتعلقة بها أن الصلاة القرآنية تراجعت بعدما تقدّمت دول الاستبداد بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصار الإسلام مجردة لفظ وصورة ورسم يُراد إدخال عدد كبير من الناس فيه واتباعه بعدما صار مجرّد دولة والديانة جزء منها بدلاً من أن يكون ديانة والدولة مجرّد آلة دنيوية لها.

ذلك لأن الصلاة القرآنية فردية وعقلانية وتعليمية، هذه أصولها الثلاثة الجوهرية. بينما الدولة الاستبدادية صارت تبحث عن رعية وقطيع فالفردية عدو لها، وصارت حسّية وعسكرية مادية الطابع فالعقلانية عدو لها، وصارت تقليدية عقائدية قد يُضرَب المتسائل فيها عن آية قرآنية حتى يكاد يُقتَل ويحارب أصحاب الفهم القرآني بالنفي والضرب وأحياناً القتل فالنمط التعليمي والعلمي صار من أعدائها.

الطريقة القرآنية تصنع فرداً عاقلاً متعلماً، بينما الطريقة الاستبدادية أرادت رعية عسكرية مُقلّدة. وبما أن عمود الدين القرآني هو الصلاة، فتم تضييعها وتبديلها وإدخال التغييرات عليها من جهات شتى معنوية وصورية ومقاصدية حتى يحدث الاستبدال المناسب للاستبداد.

كذلك بعض الروايات تكشف التحزب والشقاق الذي انتهت إليه الأمّة من بعد عهد النبي، وصار الرواة من "الصحابة" يخالف بعضهم بعضاً في التعاليم عن الصلاة وغيرها حتى يُظهروا أنهم هم عمدة الدين والمراجع المعتمدين وصار بعضهم ينازع بعضاً في ذلك وما تلى

ذلك من أتباعهم أشدّ وهكذا دواليك. فلأن الصلاة القرآنية لا يمكن أن يقع فيها مثل ذلك بحكم كون القرءان عند الجميع، فلا تفاضل وتنازع وبغي من هذا الوجه إلا نادراً ولن يدوم بحكم ما في القرءان ذاته من عوامل تمنع مثل هذا الشقاق، فكان لابد من إدخال عنصر آخر وجعله المعتمد حتى في الحكم على القرءان وهذا العنصر هو المرويات المنسوبة للنبي وكيفية فهم هذه المرويات حتى فرض صدقها. فانتقلت السلطة من سلطة الكتاب إلى سلطة الشخص الراوي والثقة به كصادق النقل حافظ الواقعة، فصار الحق لا يُعرَف بالعقل والوجود والقرءان، بل صار يُعرَف بالاعتماد على فلان وعلان، وهذا يناسب النمط الاستبدادي تماماً. والصلاة كان لها الحظ الأوفر من هذا التحويل والتضييع والعبث، بحكم كونها عمود الدين الذي يبدأ الفساد منه أو الإصلاح به كما قال تعالى {فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا} فالمعادلة بسيطة وتبدأ من تضييع الصلاة.

مما يشهد لهذا المعنى، أنك إن وجدت مائة إنسان يقيم الصلاة القرآنية، فإنك عادةً لن تجد فيهم إلا واحداً يمكن أن يكون من أهل الطغيان والاستبداد والفساد والجهل هذا إن وجدته، بل ستجد رجالاً من أهل الله عادةً، وحتى في الرواية مصداق ذلك لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم "أهل القرءان أهل الله وخاصته". لكن بالنسبة للصلاة التقليدية، يقيمها اليوم مئات الملايين بل فوق المليار وقريب من المليارين من المسلمين بدرجة أو بأخرى، لكنهم "غثاء كغثاء السيل" بشكل عام بدليل أنه إلى اليوم أكبر وأسوأ استبداد في الأرض موجود بشكل عام في البلاد ذات الأغلبية المسلمة، فما أغنى عنهم وما نفعتهم هذه الصلاة لا في الانتهاء عن فحشاء ومنكر وظلم وبغي وعدوان وفساد وجهل. نعم إرجا ع كل ذلك فقط إلى الصلاة لا يكفي، لكن للصلاة دور مهم وأساسي في تشكيل نفس المصلّي وعقليته وطريقة حياته بل وذوقه وحساسيته للأمور.

الصلاة القرآنية تصنع بإذن الله نفساً تميل وتنجذب لجهة العقل والعدل، بينما الصلاة التقليدية في أحسن الأحوال محايدة وفي العادة ومعظم الأحوال تميل بالنفس جهة عدم النفرة من الجهل والظلم. الصلاة القرآنية فعالة، الصلاة التقليدية فارغة، والاستبداد يناسبه أمّة فارغة.

-فصل: عن مسألة الجمع بين الصلاتين-

هل يمكن الجمع بين الصلاة القرآنية والتقليدية؟ وهل التقليدية عائق عن إقامة القرآنية وكل ما فيها وآثارها وتجديد الدين بها؟

بالنسبة للجمع، فهو ممكن. بل أرى حسب قراءة الروايات في ضوء القرءان والاعتبارات التاريخية النقلية المتواترة أن هذا ما كان عليه حال النبي وأصحابه الصادقين أصلاً. وهو أنهم كانوا يقيمون الصورة التقليدية كممهد وكحدّ أدنى لإقامة القرآنية. فللجلوس لقراءة القرءان ودراسته منفرداً أو تدارسه مع جماعة، جاءت الصورة التقليدية كوسيلة إعداد وتجهيز للقراء، فهي بحركاتها الرياضية ذات المعنى التعبّدي في آن واحد وفي أذكارها المكررة والنمطية تؤدي بذلك إلى استحضار العقل من مشاغل الدنيا وما كان من أمر الإنسان قبل الدخول في الصلاة القرآنية وكذلك لجعل جسمه مرتاحاً حتى يبدأ بقراءة القرءان والذي يحتاج إلى فترات طويلة عادةً من الجلوس أو القيام ونحو ذلك من الثبات الجسماني حتى يتحرك العقل ويتأمل القلب، فالحركات الرياضية والألفاظ الدينية مع الهيئة التعبدية واستشعار معنى التعبّد هذه الثلاثة تؤدي إلى إعداد النفس للتفرغ للنظر في القرءان ودراسته والاعتبار به. من هذا الوجه، يمكن أن نقول الجمع بين القرآنية والتقليدية ممكن. لكن بشرط أن نعرف أن التقليدية هي مجرد إعداد وتجهيز وليست صلب الصلاة القرآنية والمقصود منها.

لكن بالنسبة لأكثر المسلمين فلا أعتقد إمكان الجمع، لا أقلّ ليس كبداية. وذلك لأن المسلم المتوسط الذي اعتاد أن يكون همّه مجرد "إقامة الفرض" و "ما يجزئ" و"يُسقط عنه الفرض" وما أشبه من تفكير الكارهين للدين والجاهلين بأمر الله ومقصد وجود نفوسهم وسعادتهم، وهو كله من تعليم مشايخ الدجل والجهل والكفر بالنفس عبر القرون، هذا النمط المريض في التفكير سيجعله يقول "ما هي الصلاة التي إن قمت بها أبقى مسلماً كحد أدنى؟ " فإن قيل له بأنها مجرد حركات وألفاظ يقيم صورتها والسلام، فسيكتفي بذلك وينتهي الأمر. وأما قراءة القرءان ودراسته فلن تكون على باله، وإن قام بها في المناسبات الشاذة فستكون مجرد عمل إضافي ثانوي لا يرى له مركزية في حياته الدينية وحياته عموماً.

فأرى الحل كالتالي:

بالنسبة لمن يفهم ما سبق، عليه أن يقيم القرآنية وإن شاء أن يقيم التقليدية أيضاً بالمعنى السابق مع علمه وفهمه بأنها ليست هي الصلاة التي أمر الله بها فرضاً في كتابه، فهو وما عمله، وستكون التقليدية من باب الأعمال الإضافية الدينية من حيث أنها هيئات حسنة وأذكار طيبة فهي من باب المباحات والحسنات المندرجة في الأوامر القرآنية العامة من قبيل "اذكروا الله ذكراً كثيراً" وما أشبه.

بالنسبة لغير مَن سبق، فعليه أولاً إحكام الصلاة القرآنية والرسوخ فيها. فإذا رسخ واستقر فيها، حينها إن شاء وثبت عنده أن صورة التقليدية صورة في الجملة منقولة عن عمل النبي فهي صلاة النبي أي اختياره الخاص وإن كان بالوحي والإلهام لكنها لون خاص له فمن شاء

قام به ومن شاء لا يقوم به، فهذا أيضاً له وجه وهو مع كتاب الله، بل وفي قراءتي للروايات أرى أن له وجهاً أيضاً حتى في حكم ما في بعض الروايات وإشارتها. لن يُسأل أحد لماذا لم يتحرّك كما تحرّك النبي بجسمه، لكن سيُسأل الناس عن ماذا فعلوا مع القرءان وهل أقاموا الصلاة التي أمر بها في الكتاب حصراً.

أنا الآن مثلاً، أقرأ أورادي الخاصة وأنا على هيئات جسمانية مختلفة، رياضية شديدة أو غير رياضية، لكن العبرة بالقراءة والدعاء وليست في الصورة الجسمانية. فتخيل لو جاء شخص ونسي ما أقرأه والمقصد من عملي ثم صار يركّز فقط على هيئة جسمي ويريد تقليدي فيها. بهذه الطريقة أفهم كثير من الروايات التي كان يتلصص فيها بعض الناس على صلاة النبي وكم كان يقرأ وكيف كان يقوم وماذا كان يفعل. وأحياناً تصل بعض الروايات إلى حد عجيب، كأن يختلف مَن كانوا مع النبي في هل كان يقرأ بالبسملة جهراً أم لا، أو أين كان يضع يده في الصلاة، أو نحو ذلك من أمور يمنك فهمها في حال عرفنا أن النبي كان جسمانياً يقوم بأمور مختلفة في أوقات وحالات مختلفة تحديداً لأنها ليست جوهرية في الصلاة بل الجوهري فيها هو القراءة والوقت كما بيّنه الله في كتابه. بعبارة أخرى، مَن يفهم القرءان ويقيم صلاته سيكون تعاطيه مع الروايات أيضاً أفضل وسيكون جمعه بينها وبين أمر القرءان أسلم وأقرب للواقع وأعقل.

لكن على أية حال، لابد من دعوة جميع المسلمين وغير المسلمين إلى قراءة القرءان في المواقيت المذكورة في الكتاب. ثم بعد ذلك، يكون ما يكون. وقد رأيت أثر ذلك في بعض غير المسلمين والمسلمين، ممن بدأ صلته بالدين أو جدد صلته بالدين عبر القرءان حصراً، فإنهم ما وجدوا طعم الإيمان وقوّة الإسلام إلا بعدما أقاموا الصلاة بحسب تعريفها القرآني. وما أكثر ما وردني من هؤلاء وغيرهم، بل وأحياناً أجده في نفسي بالرغم من حبي الشديد للصلاة التقليدية وعدم وجداني تعارضاً في نفسي بينها وبين الصلاة القرآنية، لكن مع ذلك وردني الكثير من الإشكالات التي يجدها الناس في التقليدية والاعتراضات المختلفة والبرود والملل وسهو العقل وعدم استشعار الحضور الإلهي وغير ذلك مما يعرفه الكل على ما أظن بل أكاد أجزم. يندر أن تجد مثل ذلك في الصلاة القرآنية. لذلك أقول بأن الاهتمام بالجمع بين القرآنية والتقليدية يجب أن يكون خطوة ثانية وثانوية. الأصل والاهتمام يجب أن ينصبّ على دعوة الأمّة كلها إلى إقامة الصلاة القرآنية على أنها الصلاة المأمور بها في كتاب الله حصراً.

وأما بالنسبة لسؤال العائق، فنعم يوجد أكثر من عائق:

العائق الأول هو أن التقليدية قد تأخذ وقتاً من الإنسان المشغول في حياته اليومية بحيث لا يجد وقتاً لإقامة القرآنية والتقليدية معاً، فيقتصر على واحدة فيختار التقليدية لأنها شكلية صورية لا تتطلب عملاً عقلياً ونفسياً ولا تغييراً جوهرياً في الذات والصفات والتصرفات.

العائق الثاني هو أن التقليدية الآن لها الصدارة وعليها شبه إجماع كلي ما عدا قلة قليلة من الناس ممن يجاهر بخلافها. فعلى مستوى الفكرة، احتلّت بل اغتصبت الصورة التقليدية الصورة القرآنية للصلاة. فلابد من إزاحة المغتصب وإرجاع الملك بالحق إلى عرشه.

العائق الثالث هو أن اعتبار التقليدية ذات حجّية مطلقة يفتح باب اعتبار ما ليس في كتاب الله كشيء وتعليم له حجّية مطلقة في الدين ومن حيث هو دين يدان به. وهذا هو الأساس الذي عليه تأسست بقية الجهالات والاستبداد المنتشرة باسم الإسلام، بل ونفس نمط النظر إلى الوجود وطريقة التفكير تشكّلت بتلك المصادر الفاسدة المفسدة.

قد نجيب على هذه العوائق الثلاثة بالتالي:

بالنسبة لعائق الانشغال، يمكن أن يقال بأنه يجب على الفرد إقامة القرآنية فقط إلا إن وجدت فراغاً فيقيم الأخرى. أو يقال بأنه يجب التخفيف من التقليدية بأكبر قدر ممكن بحيث لا تأخذ إلا دقائق معدودة، بمعنى أن يتم الأخذ بأقلّ وأخفّ صورة منها بدون أي من التعقيدات الفقهية المتصلة بها بل ننظر في أقلّ وأخفّ صورة على الإطلاق بحسب تقريرات المذاهب فنجعلها هي الأساس، كأن تكون فقط هكذا: التكبير والفاتحة وسورة قصيرة كالكوثر وركوع وتسبيحة واحدة ورفع وسجود وجلسة وسجود وتشهد وسلام، حسب عدد الركعات على المشهور. أو حتى تكون تكبير وفاتحة والحركات بدون أي أذكار ثم تشهد وسلام. وهذه الصورة ستأخذ حسب التجربة أقلّ من دقيقتين، فعشر دقائق تكفي للصلوات الخمس. فتكسب من هذه الناحية الفائدة التي ذكرناها سابقاً عن الإعداد، ولا تنشغل عن الصلاة القرآنية. هذا وجه.

بالنسبة لعائق الصدارة، فالرد يكون ببيان فرضية ما في كتاب الله حصراً وعدم جواز إحلال تعليم آخر مكانه كان ما كان. فالحل تصدير كتاب الله، في هذه المسألة وغيرها.

بالنسبة لعائق الحجّية، فالرد أيضاً ببيان رفضنا لحجّية حتى الصلاة التقليدية كدين لابد من أن يدان به جوهرياً، فكل ما سوى القرءان ليس جوهرياً في الإسلام المحمدي، فقد يكون أمراً جاء لظرف معين أو كتخصيص لمباح أو مأمور به عام مقرون باختيار المخصص ذاته وليس بالضرورة ملزماً لكل أهل القرءان في كل زمان ومكان.

فالتخفيف الأقصى للصلاة التقليدية، مع جعل الصدارة للصلاة القرآنية، وَعدم اعتبار التقليدية ذات حجّية مطلقة لأنها ليست في صورتها قرآنية بيّنة، يكفي لرفع تلك العوائق. إلا أننا نذكّر مرّة أخرى بأن هذا ليس فرضاً على الجميع، فالفرض ما فرضه الله والله فرض القرءان.

-فصل: مقارنات-

الصلاة القرآنية الأصل فيها النفس والروح، بينما الجسم فيها فرع. وهذه الطريقة آدمية. فإن آدم له جسم ونفس وروح، والجسم فيه وهو طينه هو أسفل شيء فيه، بينما نفسه وروحه هي الأعلى. بينما الصلاة التقليدية الأصل فيها الجسم، والنفس والروح على فرض الوجود والظهور فإنها فرع وتابع واستثناء. فمن هذا الوجه هي إبليسية من حيث تركيزها على الجانب الحسّي، فهي شأن الجن بحسب التأويل، وهم الذين يعملون بحسب الظاهر وإن خلى من الغيب والعلم والباطن.

الصلاة القرآنية فيها استمرار مع الحياة وتحوّل للنفس. فلا تشعر بأنك انفصلت عن الحياة كأن تدخل في شيء منفصل عن الوجود الذي تحيا فيه عادةً ثم تقيمها ثم تخرج وترجع إلى وجودك الطبيعي بنفس العقلية التي دخلت بها، بل الصلاة القرآنية تشعرك حين تدخل فيها وتخرج منها أنك تحوّلت نفسياً وازداد الوجود حولك إشعاعاً وإظهاراً لآيات الله في الآفاق وفي نفسك. بينما الصلاة التقليدية مبنية على الانقطاع والتمثيل، تقطعك عن حياتك الفطرية الطبيعية، وتمثّل فيها كأنك ممثّل مسرحي يؤدي دوراً كتبه له شخص آخر وغايته فقط حسن التمثيل في الصورة مع بقاء الجوهر الشخصي محفوظاً كما هو. فالصلاة القرآنية حضرة إلهية، لكن الصلاة التقليدية مسرحية.

الصلاة القرآنية منفتحة على الدراسة والكتابة، وهذا أحسن ما وجدته فيها حين تصليها وحدك وهو الأصل، فأنا أفتح القرءان وأمامي ورقاً منشوراً أرقم عليه وأكتب ما يُفتح لي وما أفكّر فيه وأحاور القرءان وأتلقّى الروح من ربي حين أقرأ كتابه وأناجيه به. وحين تصليها مع غيرك، فإنك تقرأ الآية أو الكلمة ثم تتدارسونها سوياً وعادةً بفضل الله تعالى الذي عودنا فضله وخيره نرى ونشعر كلنا بحضور الله تعالى وإمداده وفيضه حتى أننا نجلس أحياناً بالساعات في حالة جذب كامل ثم لما نفرغ نبدأ نشعر بأجسامنا وقد نشعر بآلام في ركبنا وظهورنا من طول

الجلوس بينما لم نكن نشعر بها من قبل من شدة الحضور ونور الروح والعقل الذي يمدنا الله به أثناء صلاتنا معاً. فالكتابة والمحاورة هما من قبيل {اقرأ وربك الأكرم. الذي علّم بالقلم. علّم الإنسان ما لم يعلم}. هذا وجدته في الصلاة القرآنية بحمد الله تعالى. بينما في الصلاة التقليدية، لا يوجد لا كتابة ولا محاورة، كما قلت سابقاً مجرّد حركات وألفاظ لا تُسمن ولا تُغني من جوع، بل يا ليتها اكتفت بها حتى إنها أحياناً تتأثر نفسية المأمور بنفسية الإمام المظلمة والذي كثيراً ما يكون مجرّد أجير يأكل بدينه ويستأكل بقراءة القرءان والعياذ بالله وهو ممن سمّاه النبي في إحدى الروايات بالفاجر الذي يقرأ القرءان ليأكل به.

-فصل: مثال على الحلّ القرآني-

قد يظن البعض أن قولنا عن أمر الله {أقيموا الصلاة} يعني قراءة القرءان هو أمر جديد اخترعناه. بل الحق أنه توجد شواهد حتى في الروايات عن هذا المعنى، ولو جاء شاهد واحد لكفى لأننا في غنى بكتاب الله وما فهمناه منه فإن جاء شاهد من الروايات فالأمر أجمل وأقوى.

خذ مثلاً آية {أقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر}. معنى الصلاة هنا هو القرءان، والدليل قوله تعالى "أقم الصلاة لدلوك الشمس..وقرءان الفجر" فمرّة سماها الصلاة ومرة سماها القرءان، وذلك لأن الصلاة هي القرءان أي لها اسم من حيث صلة القارئ بالله واسم من حيث وسيلة هذه الصلة، فهو شيء واحد باعتبارين وكل اعتبار له اسم. فالأمر بإقامة الصلاة هو أمر بإقامة القرءان. لذلك قال {أقم الصلاة إن الصلاة تنهى} نعم لأن القرءان ينهى عن الفحشاء والمنكر، لكن لن ينهاك إلا إن قرأته بفهم، وأما مجرد التلاوة اللفظية فلا تأمر ولا تنهى كالأعجمي يتلو الحروف العربية ولا يفهم معناها، ولذلك بدأت الآية بالأمر بالتلاوة {اتلُ ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى} فالتلاوة لا تنهى لكن الصلاة هي التي تنهى، فهذا على اعتبار أن التلاوة للكلمات بينما الصلاة للفهم والتعقل، وباعتبار آخر التلاوة تعني الاتباع {اتل} أي اتبع واقصد اتباع كتاب ربك ومن هذا قوله "اتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحداً" ففسّر له سبب أمره إياه لمنفعته أن يتبع كتاب ربه، ولا تعارض بين معنى التلاوة اللفظية ومعنى التلاوة الاتباعية بحكم اتصالهما، لكن على الوجهين تمتاز التلاوة عن إقامة الصلاة. وجه آخر للتمييز بينهما هو أن تلاوة الكتاب {اتل ما أوحي إلى من الكتاب} هي التلاوة في غير وقت محدد أي التلاوة المفتوحة الأوقات وقد تكون في أي وقت، فالأصل التشريع بغير تقييد، ثم قال {وأقم الصلاة}

وهـي القراءة فـي أوقات محددة "الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً". حسناً. لكن هل يوجد في الروايات ما يدل على أن قوله تعالى {أقم الصلاة} يدل على قراءة القرءان؟ نعم، كما ورد في الدر المنثور للسيوطي أن ابن جرير أخرج عن ابن عمر {إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر} قال "القرءان الذي يُقرأ في المساجد". هذا من مرويات السنة. ومن مرويات الشيعة، فـي أصـول الـكافـي عـن الـباقـر عـليه الـسـلام قـال "تـذاكـر الـعلم دراسـة والـدراسـة صـلاة حسنة" فأثبت أن الدراسة صلاة حسنة.

مسألة أخرى: صلاة الخوف. قال تعالى {وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا. وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا.}

الذين لا يقرأون القرءآن ويفسّرون أوامره في ضمن بياناته حصراً، لا يستطيعون أن يقرأوا هذه الآيات ويفهموا ما فيها بحسب ما فيها فقط وما في بقية القرءان الذي يصدّق ويبيّن بعضه بعضاً. ما معنى {تقصروا من الصلاة}؟ وما هي هذه الصلاة المبينة هنا؟ ارجع لكتب فقه الروايات وستجد خلطاً وتخليطاً واختلافاً عجيباً لا تدري من أين جاءوا به وكأن هذه الآية أعجمية بل فارغة من المحتوى اضطروا إلى حشوها بمروياتهم المتضاربة.

فجعلوا قصر الصلاة يعني بدلاً من أن تصلي أربع ركعات تصلي ركعتين، فقط ! أين هذا في الآية؟ لا يوجد. فماذا عن الصلاة ذات الثلاثة كيف نقصرها؟ هذه لا تُقصر ! لكن الآية قالت {تقصروا من الصلاة} ولم تحدد صلاة من صلاة. وماذا عن ذات الاثنين كيف نقصرها؟ نفس الجواب. ثم بعد ذلك، صاروا يحكمون بجواز أو وجوب قصر الصلاة حتى في حال انعدام الخوف بالرغم من أن الله قيّد هنا الأمر بالخوف {فليس عليكم جناح..إن خفتم} بالتالي عليكم جناح إن لم تخافوا. وذكروا كلاماً عاطفياً فارغاً لا يفسّر شيئاً ويُعرِض عن الكتاب تماماً، كرواية "رخصة تصدق الله عليكم بها" أو ما أشبه، ونقول نعم رخصة بشرط مثل الإفطار في الصيام بشرط السفر والمرض فهذا لا يعني الإفطار بدون سفر ولا مرض، كذلك هنا القصر بسبب الخوف فهي رخصة مقيدة بشرط. طبعاً هذا كله لا معنى له عند أصحاب فقه الروايات

الذين الآيات عندهم ليست ذات شأن كبير إن خالفت رواياتهم وآرائهم. وإن كان يوجد مَن قال بما يقتضيه القرءان، لكن تم الإعراض عن قولهم عموماً.

فماذا عن كيفية هذه الصلاة التي يسمونها صلاة الخوف؟ اختلاف كالاختلاف ما بين الأرض والمريخ. لا أريد تطويل الكتاب بنقل ذلك، لكن ارجع إن شئت إلى الدر المنثور للسيوطي واقرأ واعجب. تفاصيل كأنهم يستدركون بها على بيان الله تعالى، كالعادة الخبيثة التي للقوم. خذ مثلاً واحداً "وصففنا خلفه صفين، ثم ركع فركعنا جميعاً، ثم سجد بالصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم، ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء وهؤلاء إلى مصاف هؤلاء، ثم ركع فركعوا جميعاً، ثم رفع فرفعوا جميعاً، ثم سجد الصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم، فلما جلسوا جلس الآخرون فسجدوا، ثم سلم عليهم ثم انصرف". أقول: ما بينه الله بقوله {فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم، ولتأت طائفة أخرى لم يصلّوا فليصلّوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم}، يعني صلاتهم صارت هكذا {وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم} هذه هي صلاة الخوف، انتهى. بهذه البساطة. فمن أين جاءوا بكل تلك التفاصيل المعقدة، وطبعاً الاختلافات الكثيرة جداً فيما بينها؟ المشكلة عندهم أنهم لم يفهموا كلمة {الصلاة} بحسب بيانها في كتاب الله، وهذا سبب ما تلا ذلك من إشكالات واختراعات ليرقعوا بها فهمهم الجديد أو المبتدع لها أو تغييرهم لجوهرها القرآني. وإلا فلو عرفنا ما هي الصلاة القرآنية في صورتها الجوهرية فسيكون بيان الله هنا من أوضح وأيسر ما يكون ولا تحتاج أن تضيف كلمة واحدة من خارج الآية عليها ومن خارج القرءان لفهم ما فيها.

وهاك البيان:

١-{أقم الصلاة} خطاب للمؤمن الفرد، يقيم الصلاة لنفسه. هذا هو الأصل. في القصر بسبب الخوف جاء استثناء وتغيّر وهو {أقمت لهم الصلاة} فهنا النبي هو الذي يقيم لهم الصلاة، لاحظ الفرق بين إقامة الفرد لنفسه الصلاة وبين إقامة النبي لغيره بل لمجموعة غيره لأن {لهم} بالجمع وهو ما بيّنه بعد ذلك نت ذكر الطوائف التي صلّت ولم تصلّ مع النبي. ولا يخفى أن {أقم} و {أقمت} ليس بمعنى الإقامة والآذان وما أشبه بحسب الاصطلاح الشائع، وإلا فالنبي هنا وباعتراف الكل لم يقل لهم "الله أكبر الله أكبر أشهد..قد قامت الصلاة". فهذا واضح.

٢-الصلاة قراءة الفاتحة والقرءان. القصر يدخل على الصلاة إذن من واحد من جهتين، إما بأن يقرأ لك غيرك وإما بأن تقرأ الصورة بدون تدبّر المعنى. الأول هو المقصود في هذه

الآية تحديداً، وإن كان الثاني داخل فيه بحسب سياق الخوف والقتل المرتقب الذي تذكره الآية فإنه يُستَبعَد حضور عقل إنسان خائف من القتل وهو يحمل السلاح ويأخذ حذره فيتشتت وعيه بسبب ذلك وهذا معلوم بالبداهة والتجربة. لكن الأصل أن القصر هو أن يقرأ لك غيرك الفاتحة وحدها أو الفاتحة وشيء معها من القرءان. ويشهد لهذا قوله في أول الآية {أقمت لهم الصلاة} وما بيّنه بعد ذلك من {فلتقم طائفة منهم معك}.

٣-الدليل على أن السجود ليس من الصلاة، أن الله قال {أقمت لهم الصلاة} فالنبي يستطيع أن يقيم الصلاة لغيره، لكن حين ذكر السجود قال {فإذا سجدوا} فنسب السجود لهم فهو فعلهم هم ولا يستطيع أن يقيمه أحد لهم فإن الإنسان قد يقرأ لك الفاتحة لكنه لا يستطيع أن يسجد لك أو يسجد بك وبدلاً عنك. فلماذا ذكر السجود هنا؟ يبيّن ذلك قوله في سورة السجدة مثلاً "إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذُكّروا بها خرّوا سُجّداً"، وقوله "إذا قرئ عليهم القرءآن لا يسجدون" في الكافرين فالمؤمن يسجد إذا قُرئ عليه القرءآن، وآيات كثيرة تذكر سجود الصالحين بعد سماع آيات الله تُتلى عليهم. والسجود إما الخر للأذقان "يخرون للأذقان" وإما بالجسم كله "فلمّا خرّ" "خرّ عليهم السقف" فالخرّ يشير إلى سقوط البدن على الأرض بحيث يكون كالظلّ أو نحوه ويمكن أخذ صورة السجود المعروفة أيضاً فهي تابعة للمعنى القرآني وفيها أصله.

٤-فتكون صورة صلاة الخوف هكذا: الإمام يقرأ الفاتحة وحدها أو الفاتحة وسورة بعدها، والمصلي معه يستمع لقراءته فإذا فرغ من القراءة سجد المصلّي إما لذقنه وإما ببدنه. وانتهى. ثم تأتي طائفة أخرى.

الآن اقرأ وانظر {وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلّوا}. فالأمر بهذه البساطة والوضوح، ولا داعي لكل ذلك العبث والشقاق الروائي والفقهي. كل الإشكالات محلولة بمجرد فهم كل مفردة قرآنية في ضوء القرءآن ذاته. وبمجرّد ما تُدخل أمراً من غير تعاليم القرءآن ودلالاته عليه فالنتيجة هي مثل إدخال فيروس قاتل في بدن صحيح فإنه يخرّب كل شيء ويفسد البدن كله.

لاحظ أيضاً أن صيرورة المسلمين طوائف في الآية، {فلتقم طائفة منهم..لتأت طائفة أخرى}، يشير إلى أمرين: الأول أن الخوف اقتضى تفريق المسلمين إلى طوائف بعضها يصلّي وبعضها يحرس، وذلك بدلاً من الاجتماع والتوحد. الثاني أن الخوف جعل قراءة النبي تغني عن قراءة المصلين معه بدلاً من أن يقرأ كل واحد لنفسه وإن حضروا كلهم جميعاً في

صلاة واحدة. الثالث أن الخوف منع من أخذ الوقت الكافي للتعقل والتدبر حفظاً للوقت ومراعاة للحال والنفس.

ولاحظ بناء على ما سبق أن الاستثناء الوارد في صلاة الخوف صار هو النمط الطبيعي في الصلاة التقليدية، نعم يقرأ الواحد لنفسه الفاتحة حتى إن كان مأموماً على بعض أقوال المذاهب لكن على ما أذكر بعضها لا يقول بوجوب ذلك على أساس أن الإمام يحمل عن المأموم مسؤولية ذلك التكليف. لكن بالنسبة لافتراق المسلمين إلى طوائف بل طوائف متحاربة لا يصلي بعضها مع بعض بسبب الاختلافات الفقهية في الصلاة صيّر الأمّة في حالتها المعتادة أسوأ من حالتها وقت الخوف الذي شرحته الآية فالآية شرحت انقسام المسلمين إلى طوائف لحالة طارئة لكنها متوحدة من حيث اهتمام بعضها ببعض فهذا يصلي وذاك يحرس، لكن بسبب الصلاة التقليدية صارت الأمّة طوائف متناحرة متقاتلة بل لعل بعضها لا يصلي ولا يحرس بل لعله لا يترك حتى بسلام الطوائف الأخرى حين تصلي كما تجده أحياناً في بعض العمليات الانتحارية الإجرامية. ما فعله الكافرون في آية الخوف أهون مما فعله فقهاء الروايات في هذه الأمّة. فإذا كان الله قد سمّى أولئك بالعدو المبين وأعدّ لهم العذاب المهين، فتستطيع تخيّل حال الذين هجروا القرءآن عند الله. ثم القصر بمعنى عدم التدبر والتفكر أيضاً صار هو النمط الشائع في الأمّة بسبب الصلاة التقليدية، فما كان بسبب الخوف بحسب الاحتمال الذي ذكرناه سابقاً صار هو النمط العام الآن حيث التدبر والتذكر والتفكر والتعقل والتنوّر ليست أصلاً مقاصد يطلبها المصلي التقليدي.

آية صلاة الخوف فاضحة لمذاهب الصلاة التقليدية، ومفرحة لأهل الصلاة القرآنية.

-خاتمة-

حافظوا على الصلوات كما هي مشروحة في الآيات فقد ذكرنا البينات. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

....

(المُلحق الثاني)

بسم الله الرحمن الرحيم

(أسئلة عن كتابي "الصلاة من كتاب الله" وردتني من مؤمن ومؤمنة)

س ١: في الجمع بين ما ذكرت في أحد منشوراتك عن حركات الصلاة في خطاب بين نفسك و روحك الشاهد منها أن الحكمة هي كونها كذلك ولا حَظ للنفس في ذلكم الطريقة، وبين ما ذكرت في كتابك هذا من أن الحركات تدعو لانعدام التعقل بالكتاب، فكيف تقول؟

الجواب: لا تعارض بين القولين. كون الصلاة التقليدية "لا حظّ فيها للنفس"، وبين كونها تدعو "لانعدام التعقل بالكتاب"، لا يوجد تعارض. فالنفس حظّها هو التعقّل، واللطيف أنه توجد رواية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تقول "ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها"، فالصلاة قيمتها بالنسبة لك بحسب "ما عقلت منها" بالتالي إذا لم تعقل منها شيئاً فلا حظّ لك من صلاتك. مع ملاحظة أن الرواية تقول "ليس لك" فهي تشير إلى ما للمصلّي، ومع ملاحظة أيضاً أن هذه الرواية تنطبق أكثر على الصلاة القرآنية التي التعقّل فيها مقصد جوهري خلافاً للصلاة الحركية اللفظية التي يكفي منها شكل الصلاة لكي تُجزئ ويسقط التكليف عن المصلّي شرعاً. ثم إن الله تعالى قال "من جاهد فإنما يجاهد لنفسه"، فأعمال الدين هي للنفس، والنفس ترتفع بالإيمان والعلم أي بالتعقّل عموماً "لعلكم تعقلون"، بالتالي العبادة التي لا حظ فيها للنفس مطلقاً ليست عبادة قرآنية ربانية. وروي عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال "لا خير في قراءة ليس فيها تدبّر" وقال "لا خير في عبادة ليس فيها تفكّر"، وروي عن النبي أيضاً أنه قال "لا خير في دين لا ركوع فيه" وقالوا بأنه أراد بذلك الصلاة،، فإذا جمعنا الكلام المروي عن النبي وعلي كانت النتيجة: لا خير في دين لا صلاة فيه ولا خير في صلاة لا تفكر وتدبر فيها. وهذا بالضبط ما نحن فيه. فإن انعدام حظ النفس لا يعني أنه أمر صالح وجيد.

إلا أني حين قلت بأن هذه الصلاة التقليدية لا حظ للنفس فيها، فهذا له وجه من الخيرية باعتبار تعويد الإنسان المتلئ بنفسه والاهتمام بما يلذ ويطيب له بالمعنى السفلي الفوري المادي، وهو شأن الناس عادةً في بدء أمرهم ودخولهم في الدين، فإن الواحد فيهم يهتمّ دائماً بما يرى فيه نفعاً فورياً له، بينما الدين مبني على أمر الله والروح والآخرة فيقتضي صبراً

والصبر رأس الأمر كله حتى سمّى الله الإيمان كله صبراً في آية "الذين صبروا وعملوا" كما قال "الذين ءامنوا وعملوا". فقد يكون من باب تسليك الناس في الدين أن وضعت لهم هذه الصلاة الحركية اللفظية حتى تأخذهم عن نفوسهم المعتادة المظلمة، حتى ينفتحوا على أفق أعلى الذي هو الصلاة القرآنية العقلية.

إذن، الحركات والتكرار يدعو إلى توقف العقل، فمن اقتصر على هذا الحد ولم ينفتح على أي أفق أعلى ويترقب كشف أسنى ولا قراءة ولا تعلّم بقي في الفراغ. وعدم التعقل يعدم حظ النفس ونموها وتنويرها.

...

س ٢: - ايضاً في ذات النقطة؛ رداً عن كون الحركة الجسمانية قد تعيق التعقل؛ من تجربة عملية شخصية أغلب الأمور فتحت لي وعقلتها كانت مع حركة جسمانية وعمل عقلي وتسبيح تسبقها أو تليها او معها. فهل نقول ان في هذا تصديق لقولهم فالرواية الموروثه: إن صحت « ..حتى تطمئن.. » فتلازم حركة الداخل حركة الظاهر.

الجواب: حتى في قراءة القرءان توجد "حركة جسمانية"، لكنها ليست مقصودة لنفسها. الذي يعيق عن التعقل هو كون الحركة مقصودة لنفسها، مع وجود كمّية يجب حفظها وألفاظ يجب تكرارها، هذا المجموع يؤدي إلى إعاقة التعقل عادةً. لكن في قراءة القرءان في الأوقات المعلومة، فإن المصلّي أيضاً لابد أن يكون لجسمه حركة أو وضع ما بالضرورة فهو لن ينخلع عن جسمه، سواء كان يصلي قائماً أو قاعداً أو على جنبه أو ماشياً على رجله أو راكباً، لكن هذه الوضعيات ليست مقصودة لنفسها بل هي وضعيات اطمئنان أو ما يشبه الاطمئنان بأكبر قدر ممكن في حال الضرورة المانعة من الاطمئنان عادةً. وكذلك حركة اللسان أو ذبذبة الأصوات داخل الدماغ حين القراءة أيضاً هي نوع من "الحركة الجسمانية"، لكنها كما ترين فرعية وليست أصلية، عَرَض وليست جوهر.

ونعم، عند مَن يطمئن في حركاته ويتدبّر في تلاوته وأذكاره، سيكون مثله مثل المصلّي بالصلاة القرآنية من وجهة القراءة والتعقل، لكن العادة والنمط الفقهي للصلاة التقليدية لا يساعد على هذا كما نراه في عموم الأمّة، خلافاً لمن يقيم الصلاة القرآنية البحتة فإننا نرى أثرها فيه عموماً بإذن الله. فالصلاة القرآنية لا تحتاج إلى تجاوز الجسم وأوضاعه وصعوبة التكرار ومشقاته حتى تؤدي إلى النور، بينما الصلاة التقليدية لابد معها من هذه العوائق ولو

كانت عوائق قابلة للتجاوز بالنسبة لقليل من الناس. يمكن تشبيه ذلك بالصورة التالية: نحن على الساحل وأمامنا بحر وفي الطرف المقابل توجد جزيرة مليئة بأنواع الأشجار الطيبة والأزهار العطرة والأنهار العذبة، كيف نصل إليها؟ البعض مشى فقطع جسراً أو جلس وركب قارباً، لكن البعض الآخر قرر السباحة وتحمّل مخاطر الحيتان وحرارة الشمس ولا لياقة عند أكثر السابحين حتى تبقى له طاقة أصلاً ليصل إلى الجزيرة وإن وصل فإنه من شدّة تعبه لعله ينام على شاطئ الجزيرة فور الوصول ولا يستطيع الدخول والأكل. الراكب هو المصلي بالصلاة القرآنية البحتة، السابح هو المصلّي بالصلاة التقليدية فقط، والماشي هو الذي يحاول الجمع بين الصلاة التقليدية والقرآنية فيجمع بين اعتبار الجسم كأصل واعتباره كوسيلة.

وأنا كذلك فتح الله لي ولا يزال بفضله الكثير من الخير وأنا في الصلاة التقليدية. فأنا لا أنكر هذا ولا أستطيع أن أنكره أصلاً. لكن كما قلت، هذا بحسب ما أراه استثناء وليس القاعدة. وكذلك لأني لا أعتبر صلتي بالله مقتصرة على الصلاة التقليدية، بل أصلّي الصلاة القرآنية وبقية أوامر القرءان من أذكار وأوراد وأدعية وغير ذلك خلال اليوم والله فضله عظيم وهو تعالى نفسه الذي دلّنا على العلاقة ما بين أعمالنا وتنويره حين قال "يا أيها الذين ءامنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً. وسبحوه بكرة وأصيلاً. هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً". إلا أنه بحسب ما نراه من حال أكثر الناس، فإنهم بالكاد أصلاً يصلّون الصلاة التقليدية، وأكثر من يصلّيها يتخذها كعمل جوارح وجسم فقط لأنها مصممة بهذه الطريقة حسب ما علموهم وجعلوا المقصد منها هو إقامة الحركات والألفاظ، ولا يوجد فيها تعاطي مباشر متعقل مع القرءان وإنما القرءان جزء من أجزائها ولا يمكن الوقوف للتأمل فيه فيها. نعم، قال بعض العارفين أن الفتح في القرءان حقاً هو الفتح الذي يأتي مع القراءة مباشرةً بدون وقفة تأمل وتفكّر بحيث تكون لحظة التلاوة هي لحظة الفتح وحصول المعنى والكشف في القلب، هذا أيضاً مفهوم لكنه خلاف العادة بل هو من خوارق العادة خرقاً بيّناً، فإن الصحابة أنفسهم كما روي كانوا يقرأون القرءان خمسة خمسة أو عشرة عشرة آيات لا يتجاوزونها حتى يتعلّموا ما فيها من العلم والعمل كما روى بعضهم، وهذا مشهود له بالتجربة من حاجة النفس إلى فترة للهضم والتأمل والسكون فإن أكل النفس للكلام مثل أكل الجسم للطعام فلابد لها من نوع راحة وفترة معالجة وهضم وإخراج.

في القرءان أيضاً ذكر لبعض الحركات الجسمانية كما بيّنا، "يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم" "دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً". فالذكر والدعاء وهما خلاصة ولباب القرءان، قد ذكرهما الله في معرض ذكر حالة الجسم حسب الظاهر، لذلك بالمناسبة الفاتحة هي سورة الصلاة لأن الفاتحة نصفها ذكر ونصفها دعاء. ويصدّق هذا ما روي عن النبي من أن رجلاً

قال له بأنه عاجز عن تعلّم القرءان فسأله شيئاً يعوضه عن ذلك فدلّه على أذكار وأدعية فالأذكار لله والأدعية للعبد وانتهى الأمر. ثم بيّن القرءان تفصيلاً كما في صلاة الخوف كيفية الصلاة إن كان المؤمن في حضرة العدو فقال "فرجالاً أو ركباناً". فالقول بأن القرءان لم يبيّن كيفيات جسمانية هو قول خاطئ. وأما إن كان الإنسان يضع حركات معينة في ذهنه مسبقاً، وحين لا يجدها في القرءان فبدلاً من تغيير ما في ذهنه يطعن في القرءان، فهذا ما يقوم به أكثر من اتخذ الروايات أساساً لدينه بدلاً من الآيات وهو من قبيل القول بالهوى والتشهي وتقديم شيء على كلام الله.

التجرّد من الجسم كان ولا يزال هو أهمّ ما يسعى إليه أهل الروح والعقل حتى يخلص لهم الشهود والنظر والفكرة. ومن هذا الباب جاء الصيام وغير ذلك من رياضات الجسم الروحية. يكفي أن الوحي يأتي للأنبياء في المنام، ومعلوم أنه في النوم لا عبرة بالجسم.

ثم حتى في الصلاة التقليدية، ليست حركات الجسم شرطاً جوهرياً فيها، كما أن الذهاب إلى الكعبة في مكة الجغرافية في الجزيرة العربية شرط في الحج التقليدي ويسقط الحج عن مَن لا يستطيع الوصول إلى الكعبة بسبب ما. والدليل أن الصلاة التقليدية لا تسقط عن المكلّف حتى إن كان عاجزاً عن إقامة حركاتها، بل ولو كان لا يعرف الكثير من ألفاظها كأن يكون صاحب لغة غير عربية. فلو كانت حركات الجسم شرطاً جوهرياً ومن جوهر الصلاة التقليدية لوجب أن تسقط بالعجز عن إقامة تلك الحركات، كما تسقط الزكاة عن مَن لا يملك النصاب، ويسقط الصيام عن المريض والمسافر، ويسقط الحج عن العاجز عن الوصول إلى الكعبة ولا يستطيع أن يضع أي مكعباً أسوداً ويطوف حوله وهو في العراق مثلاً كبديل للكعبة. فهذا دليل من ذات الفقه أن جوهر الصلاة هو الصلاة القرآنية، فإنه في الرواية عن النبي أن مَن لم يقرأ بأم القرءان فصلاته خداج يعني ناقصة غير تامة، ولم يقل مثل ذلك في العاجز عن القيام أو الركوع أو السجود أو الجلوس بالأشكال المعروفة. فحتى في الصلاة التقليدية، الحركات الجسمانية ليست شرطاً جوهرياً، بهذا الاعتبار. وهذا يعزز ما ذكرناه من أنه إذا صحّت النسبة إلى النبي، فهي صورة نبوية للحقيقة القرآنية وليست نفس الحقيقة القرآنية أو الصورة الوحيدة المحتملة لها.

...

س ٣ : في سياق أمر القراءة {اقرأ باسم ربك} فالضمير ك العائد للنبي الأمي صلاة الله وسلامه عليه تشير إلى أن الصلاة عليه من اشتراطات القراءة التامة وبالتالي إقامة الصلاة. ارني ماذا ترى؟

الجواب: قد يُستفاد من باب الإشارة هنا أن الصلاة على النبي تفتح باب القراءة الصحيحة النافعة بإذن الله، وسبحان الله أنا قبل أن أقرأ أصلّي على النبي وآله، والآن بنعمة الله ونعمتك عليّ عرفت آية ذلك، فأشكرك وزادك الله خيراً.

إلا أنه يمكن استفادة أمر آخر، وهو أن القارئ على الحقيقة هو النبي، يعني النبي الذي في نفوسنا هو الذي يقرأ، "وفيكم رسوله". ذاتنا مكونة من أربع عوالم، الجسم والنفس والروح والنور النبوي الذي هو مقام العزة "سبحان ربك رب العزة" لاحظي الكاف "ربك". فالقراءة العليا هي القراءة النبوية، هي العقل الأعلى، العقل الأول، القلم الذي قيل له "اكتب" الذي هو أول مخلوق.

كل مَن يتبع الذكر ويخشى الرحمن بالغيب، فإن فيه نور من نور النبي، وبهذا النور يقبل القرءان ودعوته إلى القراءة، فيكون من هذا الوجه مخاطَباً أيضاً بخطاب {اقرأ باسم ربك}. ويشهد لهذا المعنى مثلاً، قوله تعالى "ومن الليل فتهجّد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً" فهذا خطاب للنبي "ربك"، لكن لاحظي في سورة المزمّل التي تبيّن تفاصيل التهجّد "وطائفة من الذين معك"، فتوجد طائفة من المؤمنين هم مع النبي، مع الكاف " معك" هذه الكاف المُكرّمة التي خاطبها الله "يبعثك ربك"، فهؤلاء لأنهم اتبعوا النبي في أمرهم صاروا معه كما قال إبراهيم "من تبعني فإنه منّي". ومن هذا الوجه يكونون كأنهم النبي ومرآة للنبي.

...

س ٤ : في أصل المسألة؛ سؤال استفهامي إن كانت كذلك فلِمَ لم يرد في الموروثات بشكل جلي وواضح للقوي والضعيف عن النبي بهذا الأمر كما ورد عن ما دونه في تفصيل الصلاة التقليدية بشكل دقيق جداً، وهو أشد حرصاً وسلامةً لنا.

الجواب من ثلاثة زوايا:

الزاوية الأولى، وروده في كتاب الله يغنينا عن التكهن عن لماذا ورد أو لم يرد أمر ما في الروايات. ثم حتى الروايات فيها أمر بالتمسك بكتاب الله والاهتداء بهديه والتحاكم إليه. فهذا يكفي.

الزاوية الثانية، الصلاة القرآنية هي القراءة والوقت، وكلاهما مذكور في الآيات وحتى في الروايات. وعدد الروايات التي تدلّ على قراءة القرءان وفضل القراء ومقاصد القراءة وثوابها كثيرة جداً بيّنا بعضها في كتابنا "تاج القراء" وما لم نبيّنه أكثر بكثير عند السنة والشيعة والإباضية.

الزاوية الثالثة، الروايات تأثّرت كما هو معلوم بكثير من العوامل الخاصة، وكيفية نقلها وحفظها ونوعية الحكم عليها وعلى رجال النقل دخلها الكثير من الأمور التي نقلت الدين من مركزية القرءان وأحكامه ومقاصده ورؤيته إلى مركزية أخرى. فليس غريباً بعد ذلك إن وجدنا ما في القرءآن يناقض ما في الروايات أو ما تأسس على هذه الروايات من مفاهيم. لكن حسب اطلاعي وما كتبته في هذا الشأن في مواضع متفرقة، فإن في الروايات ما يصدّق ما ورد في القرءان، لكن تفصيل ذلك بنحو منهجي يحتاج إلى استقصاء في نيّتي القيام به لاحقاً إن شاء الله لكن القدر الذي يكفينا الآن هو ما ذكرناه، فحتى لو افترضنا أنه لم تأتي ولا رواية، فكتاب ربّ العزّة لا يفتقر إلى كيس أبي هريرة.

إضافة رابعة، قال الله موضحاً قاعدة "لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً"، والآن تعالي ننظر في الروايات والمذاهب الفقهية عن مسائل الصلاة التقليدية، وسنجد اختلافاً كثيراً كثرة متكاثرة، وهذا يدلّ إما على خلل في الروايات وإما على أن المسألة برمّتها ليست من عند الله، وعلى الوجهين يسقط الاحتجاج بالروايات على الآيات.

قرأت اليوم رواية مشهورة عن كون جبريل عرض القرءان على النبي مرّتين في العام الذي توفي فيه لكنه كان يعرضه عليه مرّة واحدة قبلها. وتذكّرت كذلك كون النبي كان له كتّاب وحي كما هو معروف وكان كتّابه يؤلفون القرءان ويرتّبوه بإشراف النبي نفسه. طيب. لو كان أمر المرويات ضرورياً وجوهرياً للدين، بالإضافة إلى القرءان، لماذا لم يوظّف النبي أناساً يكتبون سنّته بانتظام ويكتبون كل شاردة وواردة ويتناقلها الصحابة بعضهم إلى من بعضهم أيضاً، ولماذا لم يراجع النبي ما كتبوه عنه ولماذا لم يعرض جبريل السنّة على النبي أيضاً كما عرض عليه القرءان. فكّري فيها.

ثم إذا نظرنا، سنجد أن القرءان قرأه ونقلته الأمّة، وهو ليس مثل رواية أو بضعة روايات عن واحد أو أكثر، بل هو كتاب يُقرأ ليل نهار ويعرفه الرجال والنساء والصبيان والعبيد أيضاً بدرجات مختلفة طبعاً، وعلاقة الأمّة والنبي بالقرءان مشهورة من أول يوم. فكتاب هذا قيمته

ونقله وأهمّيته ومركزيته، لا يمكن معارضته برواية أو روايات مهما كانت. مع العلم أن أفضل حديث موجود بأيدينا من حيث السند والمتن هو حديث "مَن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار" ! يعني أعلى حديث موجود هو حديث يحذّر من الكذب على النبي، يعني يحذّر من صناعة الروايات. مع التنبه إلى أن بعض الصحابة قال بأن النبي لم يقل كلمة "متعمداً" بل قال "من كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار" مما يعني أن مَن نسب إلى النبي كلمة لم يقلها في الواقع ولو كان يحسب هو أن النبي قالها فليتبوأ مقعده من النار، وهذا أخطر ومعيار أصعب وأشقّ. لكن حتى مع هذا التحذير، كثر الوضع والكذب في الحديث باعتراف المحدّثين، وكثير من الأحاديث "الصحيحة" هي صحيحة باعتبار أن رجال السند كانوا عند فرقة ما وبحسب اختيارهم ثقات أو مقبولين للرواية لكن نفس الشخص قد يكون غير مقبول عند آخر، فهو معيار شخصي، ولو كان النبي يريد هذا العلم لأن يكون مستقلاً فضلاً عن أن يكون حاكماً على القرءآن لوجب أن نرى في القرءآن أو حتى في الروايات المتواترة تعليماً للنبي في كيفية قبول الرواية وتأسيس علم السند ونقد الأحاديث، فالنبي الذي يعلّمنا ١٥ أدباً في كيفية دخول الخلاء كما في الروايات لا يُستبعَد افتراض أنه إن أراد علم الروايات ليكون علماً دينياً بهذه الصورة والأهمّية والمركزية لوجب عليه أن يكون هو أول واضع لعلوم حديثه.

مثال ذلك قرأت اليوم حديثاً فيه سنده رجل اسمه حسين بن زيد بن حسين بن علي بن أبي طالب وروى حديث أن الله يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها، وهذا الحديث مما اتخذه الشيعة سلاحاً ضد فرقة أبي بكر لأن فاطمة غضبت على أبي بكر وماتت وهي غاضبة عليه فبنوا على ذلك أن الله غاضب على أبي بكر، الآن، الذهبي صاحب سير أعلام النبلاء وهو من دائرة ابن تيمية والفكر الذي فيه ما فيه من شوائب التمسلف والنصب وعداء الشيعة، حكم على هذا الحديث بعدم الصحة خلافاً للحاكم النيسابوري الذي خرّجه في مستدركه على الصحيحين وحكم بصحة إسناده فاعتبر حسين بن زيد إذن مقبول الرواية لكن الذهبي قال " حسين بن زيد منكر الحديث لا يحل أن يحتج به"، فلما بحثت وجدت حسين بن زيد هذا هو ابن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وكان من أهل العلم والزهد والورع والتعبّد ومن كبار الهاشميين العلويين وتربّى عند جعفر الصادق وأخذ عنه العلم وله مقامات كثيرة حسنة، وقال فيه بعض علماء الجرح والتعديل السنّة ما يلي: الجرجاني {أرجو أنه لا بأس به إلا أني وجدت في حديثه بعض النكرة}، أبو حاتم الرازي {يعرف وينكر}، ابن حجر العسقلاني {صدوق ربما أخطأ}، الدارقطني وهو من شهير وكبير في علم الحديث انتقد حتى البخاري اعتبره ثقة، علي بن المديني قال {كان فيه ضعف ويُكتَب حديثه}، يحيى بن معين قال {ليس بشيء}. أقول: لاحظي أنه يوجد مَن وثّقه، وأكثرهم اعتبروه مقبولاً يُكتَب حديثه ووسطاً، وواحد

قال {ليس بشيء}، كيف يكون هذا في رجل واحد؟ الجواب ببساطة: لأن معاييرهم غير موضوعية، بل قد تكون مذهبية متعصبة لأن حسين بن زيد كان من أصحاب جعفر الصادق وموسى الكاظم وهما أئمة الشيعة وأهل البيت في زمنهما، وتربى في بيت جعفر وتلقى عنه العلوم والمعارف، بالتالي لابد أن يحكم عليه أصحاب الفرقة الأخرى بنوع من الضعف ونحوه. لكن الذهبي لأنه يعرف أن حديث رضا الله لرضا فاطمة وغضبه لغضبها، قال عبارة فيها قسوة بالغة وهو أن حسين بن زيد {منكر الحديث لا يحل أن يحتج به} وكأنه منافق أو كاذب مشهور بالكذب.

على هذا النمط، يمكن النظر إلى علم الروايات بأنه تأثر بعوامل كثيرة، وكان القرءان بعيداً عن اهتمامات الكثير منهم. بل يروى أن بعض وضّاع الحديث أي الذين يخترعون الأحاديث وينسبونها إلى النبي، اخترع أحاديثاً كثيرة في فضائل القرءان، فلما سألوه قال ما معناه بأنه رأى اشتغال الناس بغير القرءان فأراد إرجاعهم إليه. فهذا ومثله من الكذابين " الصالحين" وهي ظاهرة مشتهرة تحدّث عنها مسلم في مقدمة صحيحه، كانوا يرون أنهم لا يكذبون "على" النبي حسب حديث "من كذب عَليّ متعمداً"، بل يرون أنهم يكذبون "لـ" النبي، يعني لصالح النبي، لصالح ما جاء به، فهم خارج الحديث. ومن هذا وغيره صارت الروايات أحوج إلى القرءآن من أي وقت مضى. فبدلاً من الاحتجاج على القرءآن بالروايات وما فيها وليس فيها، يجب أن يزداد حرص الناس بل وأهل الروايات على تنقيحها في ضوء القرءان وتعاليمه وتفاصيله.

مما جاء في الروايات، عن علي عن النبي أنه قال {أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم} فسألوه {ما المخرج منها يا رسول الله} فقال {كتاب الله}، ثم فصّل أهمّية الكتاب وأبعاده، وكل فقرة من فقرات هذا الحديث تحتاج إلى دراسة وتأمل، لأن هذه الأمّة وقعت ولا زالت تقع في فتن بسبب إعراضها عن كتاب الله. فدلّهم على كتاب الله، ولم يدلّهم على كتاب روايات، وقد كان يتحدث عن الناس من بعده. وهذا مفهوم لأن هذه الأمّة افتتنت بدين الروايات والتاريخ وصيّرته مركزاً وأساساً، وأعرضت بالكلية أو أعرضت جوهرياً عن كتاب الله.

كذلك في رواية أخرى عن ابن مسعود أن النبي وصف القرءان بأنه {نجاة لمن اتبعه}. لم يقل اتبعه واتبع غيره، بل قال {اتبعه}. وأصل هذا في القرءآن "اتبعوا النور الذي أنزل معه".

في رواية ثالثة أن النبي سيقول عن بعض أفراد قبيلته يوم القيامة حين يتوسّلون به {أما النَّسَب فأعرِف، وأما العمل فلا أعرف نبذتم الكتاب فارجعوا فلا قرابة بيني وبينكم}، لاحظي أن نبذهم الكتاب كان معيار تبرؤ النبي منهم حتى وهم قرابته.

فهذا وغيره مما يوجد في الروايات ويؤكد ما ورد في الآيات. فهو حجّة كافية من داخل منظومة الروايات على الرجوع إلى نظام الآيات.

الخلاصة: لا نحتاج إلى التكهن لماذا يوجد أو لا يوجد شيء في الروايات، بعد أن نجد ما يكفي في الآيات بل وفي الروايات المصدقة المتبعة للآيات ما هو عصمة لمن تمسّك به وعروة وثقى لا انفصام الله والله سميع عليم.

...

س ٥ : قولي في الجمع بين الأمرين أقصد الصلاتين أو ظاهر الأمر وباطنه؛ فهذا يجلّي هذا فكما أن القرآن موجود ظاهراً بلسان عربي وباطنا كروح فلا هذا ينافي هذا كما أن ليس كل من يقرأه يعقله و يمسه فالصلاة القرآنية هي الروح والتقليدية هي ظاهره وقوله فالآية {يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون} فالذم كان فالغفلة عن الباطن لا في ذم علمهم الظاهري. هكذا تبيّن.

تعليقي: نعم، القرءان أيضاً له ظاهر وباطن، ظاهره لسانه وباطنه حقيقته. بالتالي، لا يقال بأن أصحاب الصلاة القرآنية هم قوم يريدون الباطن بدون الظاهر، فهذا أمر.

أمر آخر، وهو الذي ركزت عليه مراراً، المشكلة في الصلاة التقليدية، إضافة إلى أنها غير منصوص عليها في القرءان وتؤدي إلى اختلافاً كثيراً وافتراقاً واحتراباً في الأمّة بغير مخرج إلى يوم الدين حتى صارت الأمّة مصداقاً قوله تعالى "أغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة" لأنهم لا يرجعون إلى كتاب الله بسبب رجوعهم إلى الروايات والمذاهب غير المبنية على الكتاب حصراً، فنفس صورة الصلاة التقليدية يجعلها للأعمّ الأغلب ذات ظاهر بدون باطن، وجسد بلا روح، وشكلية بلا حقيقة. ففرق بين شيء قابل للغفلة والذكر على الحياد فتكون المسؤولية في الذكر على عاتق الآخذ به، وبين شيء هو نفسه يميل بالآخذ به جهة الغفلة بسبب تركيبه وشؤونه.

لكن نعم إن افترضنا إنساناً يكون حاضراً في القراءة والأذكار ويتكلّم بلسان جسمه بالحركات والوضعات كما يتكلّم بلسان فمه بالكلمات، فهذا لا فرق بين الصلاة القرآنية والصلاة التقليدية عنده بل هما شيئاً واحداً من هذا الوجه.

إلا أن من أهمّ ما يشغلني هو حين يأتيني إنسان ويقول لي "تركت الصلاة (يقصد التقليدية) لأني كذا وكذا (ويبدأ يسرد لي العيوب التي ذكرناها بعضها أو كثير منها)" ثم يقول

لي "كيف أصلّي صلاة لله ذات روح وحقيقة" أو "أين هذه الصلاة في كتاب الله". فلا أستطيع أن أجيبه بقلب مطمئن إلا ببيان الصلاة القرآنية، وأقول لعله إن استقام عليها ووجد حقيقتها يميل إلى رؤية حقيقة ومنفعة الصلاة التقليدية بحسب أصلها النبوي الأولي الطاهر ثم يقوم بها من عند نفسه أو لعل الله يبعث قلبه بفهم شيء من القرءان يدله عليها. لكن ماذا سأقول لله يوم القيامة إن قال لي "أمرتك بتعليم كتابي، فهل وجدت في كتابي المستبين هذه الصلاة؟" حينها لا يمكن أن أجيب إلا بأجوبة أنا نفسي أردّها على مَن يجيب بها اليوم، من قبيل قولهم "أطيعوا الرسول" و "ما ينطق عن الهوى" وما أشبه مما نردّ استدلالهم به لأنه في غير محلّه من أكثر من زاوية كما فصّلناه في كتب أخرى. من هنا قلت بأنه يجب أولاً إقامة الصلاة القرآنية، بعد الرسوخ فيها يمكن النقاش فيما سواها لمن أراد النقاش ولم يجد ما يكفيه فيها على فرض ذلك.

...

س ٦: نقول ايضاً لمن شعر بالفتور والملل من صلاته الجسمانية كيف يعقل ألا يكون الامر كذلك وانت من الروح تجردت ورضخت لجسمك الأدنى فافعل بالباطن ليتجلى الظاهر بيسر وسلام.

تعليقي: من اللطيف أنه روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال عن القرءان {لا يشبع منه العلماء} و قال {لا يخلَق على كثرة الرد}. فمن خواص القرءان عند أهله أنه لا فتور ولا ملل فيه.

وهذا أحد أسباب وضع الله المواقيت في صلاة الفريضة (العشاء لدلوك الشمس إلى غسق الليل، والفجر من طلوع الفجر إلى ما قبل طلوع الشمس) وصلاة النافلة (بثلثي ونصف وثلث الليل كأصل، ثم ما تيسّر كاستثناء خصوصاً للمسافر والتاجر والمقاتل). لاحظي أنه ربط الصلاة أي قراءة القرءان بأوقات، ولم يربطه بحركات جسمانية أو بأعداد كمّية. لماذا؟ لأن القارئ حتى يستغرق ويتوغل ويتعمّق ويتفرغ للمعرفة يحتاج إلى تفرغ تام فيفرغ وقتاً لذلك العمل خاصة، ثم لأن الله علم أن القرءان جميل وباطنه عميق وظاهره أنيق فإن القارئ قد يغرق في جماله ونوره لدرجة أن ينشغل عن بقية أمور جسمه ومعاشه وأهله فيفقد توازن حياته فحدد له أوقاتاً ليس من باب التكليف الشاق بل من باب التخفيف والحماية من مخاطر الاستغراق. فنلاحظ أن ما بين طلوع الشمس إلى الظهيرة وقت من النهار لم يجعل الله فيه لا

صلاة فريضة ولا نافلة، لأنه قال "النهار معاشاً"، وما بعد العشاء الآخر أي غسق الليل وما بين النافلة قال "من الليل فتهجد" والتهجد فيه معنى النوم ثم الاستيقاظ من النوم، بالتالي أرشد إلى راحة ونوم بعد العشاء وقبل نافلة الليل، فجعل بهذا فاصلاً في النهار للمعاش وفاصلاً في الليل للراحة والنوم، وكذلك ذكر "تضعون ثيابكم من الظهيرة" وذلك قبل دلوك الشمس وبدء فريضة العشاء في وقتها الأول ويدل على الراحة بعد المعاش، فالوقت في القرءان متوازن يجمع ما بين الصلاة وما بين المعاش والراحة. وقد علم الله قدرة القرءآن على جذب النفس المستنيرة إلى درجة تجعلها تفقد أي اهتمام بالمعاش وبالراحة حتى قال "تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم"، فلذلك وضع الأوقات.

الآن، أين هذا من ما نجده في أمر الصلاة التقليدية عند من يعرفها ولا يعرف الصلاة القرآنية. أين هذا التقييد للمصلّين الصلاة القرآنية، تقييد حتى ينظروا في أمر معاشهم وراحتهم وأهلهم، تقييد من جمال لا تقييد استعباد وتخويف، أين هذا من ما نجده عند أصحاب الصلاة التقليدية وملّة الروايات التي يبدأ تقديمها للناس بالضرب في الصِّغَر والتخويف بالحبس والقتل والحكم بالردة في الكِبَر؟ لو كانوا يعلمون لها جمالاً ونوراً لما قاموا بذلك، وتاجر البضاعة أعلم الناس بعيوبها عادةً وإن أخفاها.

لا أريد أن أقنع أحداً بأن لا يشعر بالفتور والملل من عملية نفس تكوين صورتها يؤدي إلى الفتور والملل. خصوصاً أن الله أغنانا عن هذا بتعليم كتابه. ليمتلئ قلبه بنور القرءان، وليعتاد الذكر الكثير والتسبيح بكرة وأصيلاً، ثم بعد ذلك ليكون ما يكون ولعله حينها لن يشعر بالفتور والملل حين يشارك جسمه ما يقوم به عقله ولسانه مشاركة خاصة ذات أوضاع مخصوصة واعتبارات أخرى أخفى.

أقصد بالاعتبارات الأخرى الأخفى أن هذه الصلاة التقليدية نفسها لها أدلة من القرءآن حتى على أعدادها وتفاصيلها. فمنها ما ذكرته في كتبي، ومنها ما أنتظر الفتح فيه من الله. فمن ذلك مثلاً كونها خمس صلوات وقال النبي "الصلاة نور" (لاحظي "نور" والنور أمر إلهي غيبي "الله نور"، و"العلم نور"، فالصلاة اتصال بالله ونوره وعلمه. فحقيقتها نور، وليست ظلمة حس وجسم ودنيا)، فإذا نظرتي في آية النور ستجدي أن النور فيها ذُكر خمس مرات، وإذا أحصيتي حروف هذه الكلمات الخمس ستجديها ١٧ حرفاً بعدد (نور، نور، نور، نوره، لنوره) مع حذف اللام من "لنوره" وذلك بعدد ركعات الفرائض الخمس، وإذا حسبتي اللام من " لنوره" فالناتج ١٨ حرفاً ومن هنا تعرفي أهمّية ركعة الوتر في الروايات على اعتبار أن أقل الوتر ركعة واحدة. وهكذا كثير غير ذلك. لكن مثل هذه الاعتبارات الأعمق ليست أدلة بينة بالطريقة التي تجب فيها الأحكام في الكتاب المبين المستبين، إلا أنها أدلة وقرائن على كون

العمل صادر عن النبي أو عن ولي عارف بالله مفتوح عليه. فضلاً عن الأدلة والقرائن الأخرى التي أشرت إلى كثير منها في كثير من كتبي.

...

س ٧ : ما الدليل في القران الذي يؤصل إلى نهج التدرج في إقامة الصلاة إذا رأينا أن الإجابة القائلة بأن يبدأ المسلم بالقرآنية ثم اذا رسخ فيها واستقر ينتقل للتقليدية فيجمع بينهما.

الجواب: توجد على الأقلّ هذه الأدلة.

الأول، قال الله {أطيعوا الله وأطيعوا الرسول}، فعلى فهم أن طاعة الله هي طاعة ما في كتاب الله، وطاعة الرسول هي التي على أساسها تجب الصلاة التقليدية، فعلى ذلك يجب أن نبدأ من حيث بدأ الله، وهو أن نطيع الله وذلك بالصلاة القرآنية، ثم نطيع الرسول بالصلاة التقليدية—على فرض ثبوتها بتفاصيلها ووجوب إقامة هذه التفاصيل وعدم إقامة غيرها طبعاً، وهذا مبحث آخر لكن أبني الدليل هنا على ما يقبله أهل الروايات.

الثاني، بما أن القرآنية هي المنصوص عليها، فهي الفريضة. لكن في القرءآن أيضاً فتح مجال للذكر والتسبيح والقراءة والتلاوة والدعاء والسلام وغير ذلك بنحو غير مقيد بصورة محددة، كقوله "اذكروا الله ذكراً كثيراً" فلم يحدد ذكراً من ذكر ولا عدداً من عدد فكان كل ذلك جائزاً، ومن قبيل "أنزل من السماء ماء" ثم بعد ذلك تخرج أشجار مختلفة الألوان وتسيل الأودية بحسب الأودية وحالها فكذلك نستطيع أن نقول بأن الصلاة القرآنية التي هي القراءة والوقت يمكن أن تأخذ أشكالاً وألواناً مختلفة كلها جائزة من حيث الأصل لأنها مندرجة تحت أصول القرءآن الكلية في هذا الباب. فيكون الأخذ باللون والشكل الذي ثبت نقله وعمله من النبي أولى عند من يفهم شروط ذلك وتفاصيله ويقبله طوعاً ويناسب حاله. فالحكم الخاص يقتضي القيام بالصلاة القرآنية، والحكم العام المفتوح يجيز القيام بالصلاة التقليدية كلون من ألوان الصلاة القرآنية.

الثالث، قال الله {كان لكم في رسول الله أسوة حسنة}، فمن تبيّن عنده أن رسول الله كان يقوم بهذه الصلاة التقليدية بهيئة معينة أثناء قراءته القرءآن وأذكاره ودعائه، فهذه الآية تدله على التأسي به. فنحن نعلم يقيناً من القرءان أن الرسول كان يقرأ القرءان في أوقات الفريضة والنافلة، لكننا لا نعلم إلا بظن وما تحت اليقين أنه كان يقوم بهذه الصورة أو تلك من تفاصيل الجسم والحس، ومن المعقول-والعقل حجّة قرآنية أيضاً فضلاً عن أنه الحجّة التي ثبت بها

القرءان-أن نقدّم اليقيني على الظنّي، ونقدّم المجمع عليه على المختلف فيه، ونقدّم ما يوحّد الأمّة على ما يفرّقها وهذا بحد ذاته أمر إلهي لكل المرسلين "أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه" وقد علمنا أن الصلاة التقليدية مفرّقة بينما القرآنية موحدة مجمّعة من حيث أنها مجرّد القراءة والمواقيت.

...

س ٨: لو تكرمت وبينت لنا بما فتح الله لك معنى هذه الايات الكريمة وبينت لنا موافقتها مع ما ذهبت إليه في كتابك الأخير حول التفريق بين الصلاة القرانية والتقليدية وفق الرؤية العرفانية. قال تعالى(يا ايها الذين امنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنبا الا عابري سبيل حتى تغتسلوا وان كنتم مرضى او على سفر او جاء احد منكم من الغائط او لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وايديكم ان الله كان عفوا عفورا) فمعروف في الصلاة التقليدية ان الطهارة من شروطها ومن بينها الغسل بعد الجنابة او التيمم فهل ينطبق الامر ايضا على الصلاة القرآنية اي هل يشترط فيها الطهارة بالغسل والتيمم كما في الصلاة التقليدية؟

وفي اية اخرى قال تعالى(يا ايها الذين امنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وايديكم الى المرافق وامسحوا برؤسكم وارجلكم الى الكعبين وان كنتم جنبا فاطهروا وان كنتم مرضى او على سفر او جاء احد منكم من الغائط او لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوحوهكم وايديكم منه مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون) وفي هذه الاية ايضا تأكيد على الطهارة بحيثية معينة اغسلوا وجوهكم وامسحوا برؤسكم الى اخر ماجاء من تعاليم في الاية الكريمة التي هي تعد مقدمات للصلاة التقليدية فهل ينطبق الامر ايضا على الصلاة القرآنية وهل يشترط في الصلاة القرانية الطهارة والغسل؟ وهل يشترط الغسل بعد الجنابة؟ وماذا يستفاد من غسل الوجه للصلاة او الطهارة بعد الملامسة؟

الجواب: أوّلاً، إذا نظرنا إلى ظاهر الآيات، فلا يوجد شيء يمنع من أن تكون الطهارة المذكورة شرطاً للصلاة القرآنية كما هي شرط للصلاة التقليدية عند فقهاء الروايات. السبب هنا هو السبب هناك أيا كان هذا السبب.

ثانياً، في الصلاة القرآنية، يظهر معنى هذه الآيات أكثر. لأن الله قال عن القرءآن "لا يمسّه إلا المطهرون"، فناسب هذا المعنى تطهير النفس وتطهير الجسم من حيث أن القارئ يعقل بنفسه ويتلو ويمسك المصحف إن كان له مصحف بجسمه. فالمقصد هو بلوغ حقيقة الكتاب المكنون.

ثم نقول: غسل الوجه حتى تستيقظ وتتنشّط للقراءة وكذلك حتى تواجِه المؤمنين إن كنت تتدارس الكتاب في جماعة. وغسل اليدين حتى تمسك الكتاب والصحف المكرمة القرآنية بهما. ومسح الرأس بمعنى أنك ستأخذ الماء من يديك أي من الآيات التي تمسكها وتضعها على أعلى رأسك بمعنى تعقلها وتفهمها، ومسح الرجلين بعد الرأس إشارة إلى تغيير عملك وسلوكك بحسب ما عقلته وفهمته من الآيات. فهذه العملية الرباعية تشير إلى مواجهة الكتاب بالإقبال بوجه القلب عليه، ثم التمسّك به باليدين "الذين يُمسّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة"، ويدل على قراءة القرءآن بيد الملك الظاهرية ويد الملكوت الباطنية، ثم مسح الرأس يعني أخذ الآيات ووضعها في العقل، ثم مسح القدمين يعني إظهار ما عقله على قدمي القول والفعل في الأرض فتقول وتفعل بحسب ما تعقل.

أما قوله تعالى {يا ايها الذين امنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنبا الا عابري سبيل حتى تغتسلوا وان كنتم مرضى او على سفر او جاء احد منكم من الغائط او لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وايديكم ان الله كان عفوا عفورا)

فقوله {لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون} يدل على أن الصلاة قول وعقل. فلم يقل "حتى تعلموا ما تقولون وتفعلون"، ولو كان في الصلاة فعل أيضاً لذكر الفعل أو لقال "حتى تعلموا ما تعملون" على أساس أن العمل يشمل القول والفعل، فالقول غير الفعل "لم تقولون ما لا تفعلون" لكن العمل يشملهما معاً "ادخلوا الجنّة بما كنتم تعملون". فهذه الآية دليل على أن الصلاة في القرءان هي قول وعلم، وتلك هي القراءة. فالقراءة قول وعلم. أما السكر فيدخل على العقل، وهذا بحد ذاته يدلك على أن أي إخلال بالعقل في الصلاة وما يمنعه من التعلّم في الصلاة فهو خلل في الصلاة. الآن، اعتاد الناس على اعتبار السكر هو مجرّد شرب الخمر المادي، والحق أنه يوجد ما هو أشدّ من الخمر وما هو أحق باسم الخمر والمسكرات من الخمر المعروفة، من قبيل العقائد والأفعال الجسمانية التي تحول بين المصلي وتعلّم ما يقوله والانتفاع العلمي من القرءان.

ثم إن {الصلاة} هنا تشير أيضاً إلى مكان إقامة الصلاة، لذلك قال {ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا}، فالمرور يكون بمكان الصلاة. فسمّى مكان الصلاة صلاة، كقوله " وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله". مما يشير إلى اتخاذ أماكن مخصصة للصلاة، ويشهد لهذا قوله "اتخذوا من مقام إبراهيم مُصلّى". وهذا مما يعين على التركيز العقلي في القراءة والحضور، كما هو معلوم عند أهل القراءة عادةً، فضلاً عن ما سوى ذلك من بركات، ويعزز هذا ذكر المحراب لزكريا ومريم وداود، والمحراب مكان الحرب لأن الصلاة حرب بالنور ضد الظلمات، وحرب بالعقل ضد الجهل، وحرب بكلام الله ضدّ كلام الخلق.

المريض والمسافر والغائط واللمس، هذه الأربع كلها تشير إلى متاعب الجسم وعوائقه ومشاكله. وكلها تؤدي إلى عدم تركيز العقل أي هي نوع من المسكرات إن شئت بدرجات مختلفة والتي تجعل المصلّي لا يعلم ما يقول أو لا يحسن تعقّل وتعلّم ما يتلوه من كتاب الله تعالى. هذه الأربعة تدل على كون الوعي مستغرقاً أو محبوساً في الجسم وآلامه وهمومه ومشاغله، وقد علمنا أن الوعي كلما هبط للجسم كلما ابتعد عن الروح. فلذلك كان الأمر بالاغتسال والطهارة وسيلة كأنها وسيط يرفع الوعي من مجال الجسم إلى مجال الروح والحق المتعالي ويُدخله حضرة القرءان.

أما قوله لمن لم يجد الماء {فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وايديكم}، فالماء له أربع أعضاء، وجه ويد ورأس ورجل، لكن الصعيد وهو تراب وأرضي خلافاً للماء السماوي، له الوجه واليد، لأن وضع التراب على الرأس والقدم يشير إلى تحوّل العقل والعمل إلى البُعد الأرضي المادي وظاهر الحيوة الدنيا وهو شأن الغافلين والكافرين، فلذلك اكتفى بالوجه واليد للتنبيه المعنوي، وكذلك لأن التراب يشير إلى الأمثال والكلام اللساني وهو ظاهر القرءان الذي تواجهه وتأخذه بيدك، فالقرءان له بُعد ترابي وبُعد مائي. فالأصل الوجه واليدين في الحالتين، لأنه لابد من التوجّه والأخذ. وعلى العموم الماء أو الصعيد وسيلة تنبيه وعمل شيء له طابع شعائري حتى يجذب الوعي من العمل ذي الطابع الدنيوي والشهواني إلى العمل الروحاني العقلاني.

ثم ختم بأسماء حسنى {إن الله كان عفواً غفورا} فالله هو منزل الكتاب، والعفو يشير إلى الماء الذي يغطي الإنسان كله بأبعاده الأربعة، لكن الغفور يشير إلى الغفر وهو الستر ويشير إلى الصعيد الذي يستر على الأقلّ أهمّ ما في الإنسان بالنسبة لصلته بالكتاب. وفي الجملة كلاهما يدل على أن أصل تعامل الله في هذه القضايا هو العفو والمغفرة، وليس الشدة والانتقام ونحو ذلك. فتأمل هذا فهو أصل بديع في الفقه القرآني. وعززه بالآية الأخرى {مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون}. فالمقصد النهائي تحقيق الشكر، وليس مجرّد إقامة الشكليات والتصرف بالماديات. وهذا من أصول فقه

القرءان، والذي المقصد من الصلاة وشؤونها فيه هو تغيير النفس، من الكفر إلى الفكر والشكر، من الغفلة إلى الذكر، من العصيان إلى فهم وطاعة الأمر. "كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذنهم ربهم إلى صراط العزيز الحميد".

....

(المُلحق الثاني)

بسم الله الرحمن الرحيم

(أسئلة وردتني مع أمور فُتحت لي إضافية في المسألة)

فصل : الأسئلة.

س ١: من آيات الصلاه كتأويل آخر غير الذي ذكرته في كتابك هي عبارة عن حركتين إقامة (بمعنى وقوف) وسجود ممكن أعملهم وأنا أقرأ قرآن؟ أم أن الإقامة في (أقم) (أقمت) هي الدراسه وقراءة القران ونخر ساجدين حتى لو لم يكن لدينا سجدة تلاوة في كل مرة أدرس القران؟

جواب:
أما بالنسبة للإقامة. {أقم} لا تعني القيام على القدمين. فهي مثل "أقيموا الدين" و "أقيموا الوزن بالقسط" و "أقيموا الشهادة لله" و "أقيموا وجوهكم عند كل مسجد". فقوله {أقيموا الصلاة} وبعدها {وقرءان الفجر} يعني أقيموا الصلاة وأقيموا قرءان الفجر، ثم قال {ومن الليل فتهجد به} وبيّن ذلك في المزمّل {فاقرأوا ما تيسّر منه}، بالتالي الإقامة تعني القراءة الصحيحة بالفهم الصحيح، لأن تغيير كلمات القرءان من الاعوجاج في الكلام، وتغيير معاني القرءان من الاعوجاج في الأفهام. هذا أصل الإقامة. "الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عِوَجا. قَيِّماً ليُنذِر".

وأما بالنسبة للسجود، فأنا أؤمن بالسجود بعد كل قراءة للقرءان بعدما قرأت قوله تعالى "إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذُكّروا بها خرّوا سُجّداً" فلم يحدد اية من آية بل عمم ذلك في الآيات كلها. وكذلك قال في غير المؤمنين "إذا قُرئ عليهم القرءان لا يسجدون" فكان السجود بعد قراءة القرءان من علامات المؤمنين، سواء كان السجود على طريقة "يخرّون للأذقان" أو كان على طريقة "لله يسجد..وظلالهم" أي على الأرض بالكلية حسب الصورة. ويعزز هذا قوله في سورة الفرقان أيضاً "يبيتون لربّهم سُجّداً وقياماً" وقوله "يبيتون" يشير إلى الليل كما قال " تتجافى جنوبهم عن المضاجع"، وقد عرفنا من المزمّل أن تهجّد الليل بقراءة القرءان، فكانت القراءة هي المشار إليها بكلمة "قياماً" فبقيت "سُجّداً" لما يتصل بالقرءان. وهنا دلالة أخرى،

وهـي السجود قبل القيام، "سُجّداً وقياماً"، فقد يسجد أولاً ثم يقرأ ثم يسجد، فيكون سجوده متضمناً للتسبيح والدعاء ومن الخير لو دعا بأن يفتح الله له في القرءان ويقبله ويرفعه، وهذا لأن الله قال "سأصرف عن آياتي الذين يتكبّرون في الأرض بغير الحق" فجعل التكبّر سبباً للصرف عن الآيات، فعرف عباد الرحمن ذلك فقدّموا السجود لله نفياً للتكبّر عن أنفسهم حتى تتزكّى ثم يدخلون في القراءة بالقيام وهم طاهرون لقوله عن القرءان "لا يمسّه إلا المطهرون". وعلى ذلك، تكون أحسن صورة هي السجود ثم القيام ثم السجود، فالسجود الأول نفياً للتكبّر والدعاء بالفتح في القراءة، ويكون السجود الآخر شكراً للنعمة ودعاء بالتوفيق للعمل بما علمه القارئ بفضل الله وتعليمه.

...

س ٢: فترة من دلوك الشمس إلى غسق الليل تعني من الظهر إلى العشاء هذه فترة طويلة ومفتوحة (ولم يحدد فيها الله ٤ أوقات كما اعتدنا في الصلوات الخمس والفجر وقته منفصل عنها) هل المقصد لدراسة القران أنه طول اليوم أدرس وإلا المقصود أطبّق القران في سلوكياتى خلال اليوم (كان خُلُقه القرآن)؟

جواب:
قال الله{يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر} وبيّن أن الله يريد أن {يخفف} عنّا. ويشهد لهذا مثلاً قصّة البقرة، فإنه بدأ بإعطاء أمر واسع {اذبحوا بقرة} ولم يخصص ويقيّد ويضيّق في صفات البقرة، بل أي بقرة كانت كافية لإقامة أمر الله هذا. فهذا أصل.

ثم إن الله ذكر {صلاة الفجر} و {صلاة العشاء}، فأفرد اسم الصلاة {صلاة} يعني صلاة واحدة. ثم بيّن وقت العشاء مثلاً بأن لها أول ولها آخر، فالعشاء الأول هو {لدلوك الشمس} والعشاء الآخر هو {غسق الليل}، فكل هذا وقت واحد. وبما أنه قال {صلاة} بالمفرد، فالصلاة الواحدة كافية لإقامة هذا الأمر. بالتالي، إذا قرأنا سورة الحمد فقد صلّينا، وإذا قرأنا سورة الحمد وسورة أو آيات بعدها فقد صلّينا، وإذا ختمنا القرءان كله فقد صلّينا، المهم الإتيان بصلاة واحدة على الأقلّ في هذا الوقت حتى يتم أمر {صلاة العشاء}.

من طرق القرءآن في التشريع أحياناً أن يضع حداً أعلى وحدّاً أدنى، ويترك للناس العمل بينهما. فمثلاً، في المزمّل، مرّة يقول {ثلثي الليل} وأخرى أخف {نصفه} وثالثة أخف {ثلثه} ثم خفف بالمرّة فقال {ما تيسّر} فلم يحدد وقتاً كمّياً وترك الأمر للنفس ونشاطها وحضور عقلها

في القراءة. فما بين {ثلثي الليل} و {ما تيسّر} كحدّ أعلى وأدنى، أو على اعتبار آخر {قم الليل إلا قليلا} بدون تحديد هذا القليل فيكون أي نومة وراحة مهما قلّت تكفي لتحصيل معنى التهجد لأنه من القيام من المضجع بعد النوم وما بين {ما تيسّر} توجد درجات كثيرة. هذا مثال. مثال آخر، حين ذكر القتال، فذكر الحدّ الأعلى وهو "إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين" فهذا الحد الأعلى وهو واحد لعشرة، ثم خفف للضعف فذكر الحد الأدنى وهو "مائة يغلبوا مائتين" فهذا الحدّ الأدنى وهو واحد لاثنين، ثم بين ذلك درجات من الفضل. بناء على هذا المعنى، يكون أحسن مصلّي هو الذي يقرأ القرءان {لدلوك الشمس إلى غسق الليل} بلا انقطاع، فيكون في شكل من أشكال القراءة طوال هذه الفترة، سواء كان يقرأ في مصحف أو يكتب ما يتأمله أو يتلوه في سرّه وهو يمشي أو أيا كانت الصورة طالما أن الجوهر حاضر واسمه مصلّي.

من هنا مثلاً تجدين هذه الرواية: سُئل نافع وهو التابعي المصاحب لعبد الله بن عمر بن الخطاب "ما كان يصنع ابن عمر في منزله؟" فقال "لا تطيقونه. الوضوء لكل صلاة والمصحف فيما بينهما". من أين جاء ابن عمر بهذا؟ أما الوضوء فلأن الله قال {إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا}، فهذا الكلام يحتمل إما القيام من النوم وإما القيام بمعنى أي قيام إلى الصلاة، يعني يحتمل فهماً فيه تخفيف ويحتمل فهماً فيه تشديد، وظاهر الآية ونصّها يقتضي ما كان يقوم به ابن عمر حسب الرواية السابقة، وهو أن كل قيام إلى الصلاة لابد له من الغسل والمسح، فأخذ بالفهم الحرفي للآية وهو الحد الأعلى. هذا بالنسبة للوضوء. لكن لاحظي قوله {والمصحف فيما بينهما}، يعني فيما بين الصلوات، بمعنى أنه كان يصلّي في المسجد مع الناس الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وهذه كلها فيها قراءة قرءان ففيها جوهر الصلاة القرآنية، لكن بعد ذلك لم يكن ينسى القرءان كدراسة في المصحف وتأمل ونظر، بل كان يرجع إلى منزله ويشتغل بالمصحف {فيما بينهما} بالتالي، الرواية تعزز أنه كان يأخذ بحرفية القرءان وهو {لدلوك الشمس إلى غسق الليل} بدون انقطاع ما أمكن، يعني اشتغال بالقرءان وشؤون الصلاة في كل هذا الوقت. هذا شاهد من المرويات على هذا المعنى.

بالتالي، {لدلوك الشمس إلى غسق الليل} ظاهرها وحرفها وأعلى عمل بها يقتضي أن يكون الإنسان في صلاة فيما بين هذين الوقتين. فهو وقت صلاة.

وأما بالنسبة لمفهوم تطبيق القرءان خلال اليوم: فأوّلاً تطبيقه فرع لفهمه والتحقق بروحه ومعرفة حقائقه وهذه كلها من ثمار الصلاة بإذن الله. ثانياً، من طلوع الشمس إلى وقت الظهيرة، ومن بعد العشاء الآخر إلى النوم أو إلى الفجر، هذه الأوقات كلها مخصصة لـ"تطبيق" القرءان

بمعنى إظهاره في الأرض والدنيا، لأن الله لم يذكر صلوات محددة في هذه الأوقات وإن كان قوله "على صلاتهم دائمون" يتضمّن اليوم كله بلا استثناء. فنعم، استحضار القرءان في القلب، وتذكّر آياته على مدار اليوم، ورؤية الوجود كله بعين وروح قرآنية، والتصرّف بحسب ما فهمه الإنسان من القرءان، هذا كله يجعل الإنسان في صلاة دائمة. فالنظر في الآيات الطبيعية والآيات البشرية أيضاً من قراءة القرءان الكوني، ولا خير في قراءة القرءان العربي إذا كان القارئ لا يرتقي إلى قراءة القرءآن الكوني "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق"، ولا خير في قراءة القرءان الكوني إذا لم يرتقي القارئ إلى "أولم يكف بربّك أنه على كل شيء شهيد" فيرى الله في كل شيء وهو القرءان الإلهي. فالعربي باب الكوني، والكوني باب الإلهي، "وأن إلى ربّك المنتهى".

لكن لابد أيضاً من تذكّر أن الحياة الاجتماعية والطبيعية كلما كانت أفضل كلما كان الإنسان أكثر تفرغاً للخلوة بالقرءان العربي، ويمكن أن يرى كل شيء وهو في خلوته، لأن الطبيعة كلها مجموعة في نفس كل فرد "وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون" فمن أبصر نفسه عرف كل شيء "أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بلقائ ربهم لكافرون" فلاحظي كيف جعل التفكر في النفس طريقاً إلى معرفة السموات والأرض وما بينهما ومن هنا إلى لقاء رب النفس فالله أقرب للنفس من "حبل الوريد". كثير من أشغالنا الطبيعية مبني على عدم انتظام الحياة بعد، وكذلك لعل أكثر أشغالنا الاجتماعية مبنية على نوع من الفوضى أو اللهو وما أشبه. فمن انتظم أمره ولمّ شمله ورتّب أموره حتى يتفرغ من كل هموم الطبيعة والمجتمع بأكبر قدر ممكن، ثم وجد الفراغ وسعى له سعياً إما بالتقلل من الشهوات وإما بتأسيس العدل والانتظام في المعاملات، وبأي طريق آخر حسن ومشروع، فسيكون من أهل "فإذا فرغت فانصب. وإلى ربّك فارغب". فيدخل خلوته، وينعم بقراءة الكتاب الإلهي والعروج به منه فيه لكل الوجود النوراني.

فإن كان ولابد من الخروج للطبيعة، فانظري بعين التأويل لأمثالها وأحداثها حتى تكون قراءة، وإن كان ولابد من الاجتماع مع الناس فاجتهدي بقدر وسعك حتى يكون الناس حولك من أهل الذكر والفكر والدعاء "اصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم" حتى تكون نفس صحبتهم نوعاً من الصلاة ورؤيتهم لوناً من الاتصال بنور الله وإن كان الناس حولك في وقت ما بخلاف هذا الحال فكذلك تأمليهم كأنهم تنظرين في القرءان لأنه لا توجد نفس إلا وهي مثال من الأمثال المضروبة في القرءان وتظهر فيها آية من آيات الله المبيّنة في الفرقان فاجعلي معاشرتك لهم نوعاً من القراءة والاعتبار والانتفاع والاستبصار.

...

س ٣: حدد الله صلاتي الفجر والعشاء هل هي الأساس لدراسة كتاب الله ولو راح وقتها علي أكون ما أقمت الصلاة؟

جواب: لو كانت تنفع الصلاة بعد خروج الوقت، لما أنزل الله آيات صلاة الخوف من قوله {لا جناح عليكم أن تقصروا من الصلاة إن خفتكم أن يفتنكم الذين كفروا}، لأنه فسّر سبب تجويز القصر بعدها فقال {إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا}. فحتى يحفظ الوقت أجاز حتى الصلاة قصراً مع حمل السلاح خوفاً من العدو الحاضر الذي يريد أن {فيميلون عليكم ميلة واحدة} يعني حتى يقتلكم وينهب أموالكم. فإذا كان مع خطر القتل والنهب لم يرخّص في ترك وقت الصلاة، فهذا وحده يكفي أهل الإيمان لمعرفة أهمّية حفظ أوقاتها.

ولو كان بالإمكان قضاء الصلاة بعد خروج وقتها كما يمكن عدم الصيام وتعويض أيامه في {أيام أُخَر}، لقال هذا أيضاً هنا. ففي الصيام مثلاً قال {فمن كان مريضاً أو على سفر فعدّة من أيام أُخر} وبيّن سبب ذلك فقال {يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر}. فمع المرض والسفر أجاز تعويض أيام الصيام بغيرها لمن أراد خير الصيام، ونسب ذلك إلى التيسير وعدم التعسير الإلهي. لكن لم يفعل نفس الشيء في الصلاة. بالرغم من حضور القتل والنهب من عدو متربّص، بالرغم من أنه يوجد سفر أيضاً {وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة} وحضور الخوف {إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا} بل ولو وجد المرض {أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم} فأجاز وضع السلاح وعدم حمله حينها لكن لم يجز حتى للمسافر والمريض والمتعرّض للفتنة بالقتل والنهب من أن يؤخّر الصلاة عن وقتها أو عن أن يعوضها ويقضيها بعد وقتها. فإن كان قضاء الصلاة من العلم في شيء، فلم يبلغ علمي هذا الأمر وأرجو الله معرفته وأن يدلّني عليه عالِم بكتاب الله، لكن ما هو معلوم مقروء هو ما تجدينه مفصلاً أمامك. فلا أدري من أين جاءوا بقضاء الصلاة هذا وكتاب الله مع كل التيسير والرحمة لم يرخّص في قضاء الصلاة، وقد كان بحسب مفهومنا أيسر من مجرد قصر الصلاة بالرغم من وجود العدو بل والمرض والمطر المؤذي فيه. فلا قياس بين الصيام والصلاة. الصيام {أيام معدودات} فالعبرة فيه للأيام، والأيام تقاس بالأيام. لكن الصلاة مبنية على الوقت الحالي لكل يوم، فإذا انقضى هذا اليوم ذاته انقضت صلاته، فلا شيء يعوّض ذات اليوم وصلاته الخاصة به. فجر اليوم هو فجر اليوم فقط وليس نفس فجر الغد، كذلك دلوك الشمس إلى غسق الليل لهذا اليوم الذي نحن فيه ليس مثل أي دلوك شمس إلى غسق الليل لأي يوم

آخر. لكل يوم صلاته، والله تعالى "كل يوم هو في شأن" فمن خسر معرفته في شأن اليوم فقد خسره إلى الأبد ولا يُعوَّض ذاته أبداً. لذلك التعرّض لخطر القتل على يد العدو الحاضر أهون على المؤمنين العارفين بحقيقة الصلاة وقيمتها الأبدية للنفس من تأخير الصلاة أو تركها.

إذن، لكل وقت صلاته، والوقت لا يُعوَّض بذاته إذا ذهب، فلا معنى لقضاء الصلوات، وإنما تصلّي في وقت صلاة أخرى ليوم آخر وأي صلاة تقام في ذلك الوقت الآخر هي صلاة ذلك الوقت وليست صلاة الوقت الفائت. لذلك أثنى الله على المؤمنين بأنهم {على صلاتهم يحافظون}. نسأل الله أن يغفر لنا ما مضى، ويثبّتنا فيما بقي من أجلنا المُسمّى.

...

فصل : فتوحات.

أ- إن الله {يُطعِم ولا يُطعَم}، وقال في الصلاة {وأمُر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى}، فالصلاة إذن عمل يأتيك فيه رزق من الله، ولست أنت الذي ترزق فيه الله جلّ وعلا. فالصلاة رزق لك، طعام لك، من الله ربك.

هذا المعنى يظهر بجلاء في الصلاة القرآنية، ويغيب عند المحصور في الصلاة التقليدية من المعرضين عن الصلاة القرآنية.

لأنك في قراءة القرءان تأكل من مأدبة الله إذ قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم "القرءان مأدبة الله" وهو معنى {يُطعِم} فنفسك تأكل وتشرب من كلام الله حين تقرأه، ويأتيك رزق علمي منه مع كل قراءة. وهذا بالمناسبة هو أحد أسباب حفاظ المؤمنين على الصلاة إذا جاء وقتها، ولو كانوا بحضرة عدو يريد قتلهم ونهب أمتعتهم، لأن القتل يسري على البدن والنهب على الأمتعة وهما من الدنيا يعني حياة الدنيا ورزقها، لكن ترك الصلاة هو قتل للنفس ونهب لمتاع الآخرة يعني حياة الآخرة ورزقها، والآخرة خير وأبقى من الدنيا، فوجب تقديم منفعة الآخرة بالحفاظ على الصلاة على مصلحة الدنيا بترك الصلاة.

أما الذي يرى الصلاة فقط كحركات وألفاظ يقدّمها لربّه، فهو يتخيّل بأن ربّه يُطعَم أيضاً ويحتاج إلى رزقه هذا بصلاته، فكأنه يُعطي ربه الطعام والرزق بهذه الحركات والألفاظ، ولذلك تجده لا يلتفت كثيراً إلى المعاني والأخذ والانتفاع من كلام الله وما يذكره، بل يُلقيه صورياً وكأن شخصاً غيره سيأخذه منه وينتفع به وهو هنا ربه جل وعلا، لذلك نبّه في الآية على معنى

{لا نسألك رزقاً} بعدما أمر بالصلاة، حتى لا يتوهم أحد أن الصلاة والاصطبار عليها هو لأن الله تعالى مفتقر إلى صلاتنا وخشوعنا وما أشبه.

فهذا فرقان ما بين الصلاة الحقيقية والصلاة المزيفة. الحقيقية الله يُطعمك فيها ويرزقك، المزيفة تتوهم أنك تُطعم ربك وترزقه. ومن هنا مثلاً تجد الفرق ما بين موسى ومحمد صاحب القرءان. فموسى قال {عجلت إليك رب لترضى} فعجل عن أمر ربّه في قضية استخلاف هارون والعجلة لا تكون إلا عن أمر كان يجب القيام به وإتقانه لذلك سأله الله {ما أعجلك عن قومك يا موسى} فأجابه بـ{لترضى} فردّه الله إلى قومه وذكر الفتنة. لكن في محمد قال {اصبر..سبّح بحمد ربك} لماذا؟ {لعلّك ترضى} أنت الذي لعلك ترضى بسبب الصبر والتسبيح بحمد ربك، وليس الله هو الذي يفتقر إلى رضاك، أنت مفتقر إلى الرضا والله يدلّك على كيفية تحصيله. فموسى عمل على أنه سيرزق الله الرضا فردّه الله في هذه الآية، لكن محمد عمل على أن الله سيرزقه الرضا فأرضاه {ولسوف يعطيك ربك فترضى}. هذا مثال. مثال آخر في القبلة، قال {فلنولينّك قبلة ترضاها} فالله تعالى ليس في قبلة محددة بل {لله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثَمّ وجه الله إن الله واسع عليم}، لكن الرسول أراد قبلة محددة يرضاها ولأنه عبد الله فكان يريد أمراً وإذناً منه فجاء الإذن كما بيّنته الآية، لرضا الرسول وليس لرضا الله تعالى. والأمثلة أكثر في هذا الباب، وهي من الفرقان ما بين العبادة الصادقة والعبادة العبثية بل لعلها تكون كفرية من حيث توهم العبد الفقير أنه غني والله الغني مفتقر له، فهو من قبيل قول بعض الكافرين {إن الله فقير ونحن أغنياء} فيتوهم أن وسيلة إرضاء الله مثلاً عنده هو بالقيام بالعبادات والأحكام ونحوها من أمور الدين، فكأن الله فقير إلى إقامتنا للدين، وحيث أنه يريد الصلاة منّا مثلاً فهذا يعني أنه فقير إلينا، وبما أنه فقير إلينا فنحن أغنياء إذن لأننا نستطيع الكفر بالدين والاشتغال بالدنيا واللهو واللعب والتمتع ونسيان أمر الله ونجد اللذات والشهوات في الدنيا، بينما الله تعالى فقير إلينا سيغضب وتحدث فيه الأحداث الجسام إن لم نقيم نحن الدين من أجله هو ومن أجل إيصال الرزق الوجداني أو الحسّي الذي يحتاجه هو سبحانه وتعالى. إذن، الصلاة القرآنية مبنية على أصل نوراني هو {الله الغني وأنتم الفقراء}، لكن الصلاة التقليدية وما شابهها من العبادات الشكلية الخالية من الروح والعقل للذين أعرضوا عن الصلاة القرآنية مبنية على أصل ظلماني هو {الله فقير ونحن أغنياء}.

ويتأسس على هذا ما تجده مثلاً من تكاسل عن الصلاة، أو استشعار ثقلها وكرهها، أو محاولة التخفف منها وما إلى ذلك من أمور كلها تشير إلى نفس مستغنية مستكبرة تظن أنها تعطي الله بالصلاة بدلاً من أخذ عطاء الله الباقي الأعلى بالصلاة. مَن عرف وذاق الصلاة القرآنية، الشيء الوحيد الذي سيكرهه هو بدنه والدنيا كلها التي تشغله عنها وتجذبه بعيداً

عنها كرهاً. خلافاً لما تراه عند المعرضين عن القرءان ممن يعتقد فقط بالصلاة التقليدية الجوفاء، فمنهم مَن تركها بالكلية (ولذلك حكم فقهاء هذه الصلاة بالقتل والتكفير على تاركها حتى يُكرهوا الناس على صورتها)، ومنهم مَن يتركها أحياناً ويقوم بها أحياناً ولعلهم الأكثرية أو الكثير جداً منهم، ومنهم من يقوم بها لكن رغبة في الخروج عن ثقل التكليف وتأنيب الضمير والخوف من الموت بل قد يكون ملحداً كذاك الملحد الغابر الذي سألوه كيف تصلّي وأنت ملحد فقال "رياضة الجسد وعادة أهل البلد"، ثم قلّة قليلة تجد النعيم فيها لكن أكاد أجزم غيباً أنك ستجد هؤلاء ممن يقيم الصلاة القرآنية أيضاً ومن الذين يذكرون الله كثيراً ويقيمون بقية أوامر القرءان، ويرون هذه الصورة الحركية واللفظية منقولة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيقيمونها اتباعاً له بالعلم بذلك وهذا هو طريقي.

...

ب-قال الله تعالى في المنافقين {وما منعهم أن تُقبل نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كُسالى ولا يُنفقون إلا وهم كارهون. فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليُعذّبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون}

قال {كفروا بالله وبرسوله} ببائَين اثنين. كما قال "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول". لله أمر، وللرسول أمر، لكن أمر الرسول غيرَ وَ تابع لأمر الله. نعم، غيرَ وَ تابع. فهو تابع لأنه {الرسول} ولأنه يحكم بالكتاب بما أراه الله بسبب هذا الكتاب النازل عليه، فإما يحكم بما أراه الله في الكتاب وإما يحكم بروح الكتاب فيصبح يرى به بمعنى حتى إن لم يستحضر آية خاصة أو يجمعها في ذهنه على طريقة التحليل والربط لكن نفس نزول الكتاب عليه بالحق يجعل رؤيته وحكمه من الأمور الإلهية الموفقة المسددة. فمن هذا الوجه ونحوه، يكون أمر الرسول تابع لأمر الله. لكن بالمقابل، لابد من الاعتراف بوجود نوع مغايرة بين أمر الرسول وأمر الله، بدليل تثنية الطاعة {أطيعوا الله وأطيعوا الرسول} ولو من باب الاحتمال، من قبيل أن الله وضع فريضة الصدقات على ثمانية أصناف وبيّن حكم الغنيمة والأنفال، فهذا كله من أمر الله، لكن مَن الذي سيطبّق هذا في الواقع وفي زمنه وعصره وعلى الأشخاص والأحداث الجزئية؟ لابد من حاكم بكتاب الله، وهنا يأتي أمر الرسول، بل و{أولي الأمر منهم} ممن يتبع الرسول في هذا الطريق. فأمر الله هو إعطاء صدقة للفقراء، هذا نعقله من كتاب الله. لكن مَن هو الفقير في زماننا؟ هل زيد فقير أم عمرو أم سارة أو مَن بالضبط هو الفقير من حيث التشخيص الواقعي؟ هنا يأتي {أطيعوا الرسول} فحتى طاعة الرسول هي من طاعة أمر الله لأن الأمر بطاعته هو أمر الله لنا

{أطيعوا} فمن أطاع الرسول فقد أطاع أمر الله في كتابه، بالتالي لا يقال بأن طاعة الرسول شيء منفصل عن كتاب الله بل كتاب الله نفسه يأمر بطاعة الرسول، لكن هو {الرسول} فأمره سيكون تابعاً للرسالة وإذن الله وما شرعه الله وأمر به وبالمعروف "ولا يعصينك في معروف" فقيّد بالمعروف.

فإذا وجدنا مثلاً الرسول، من باب المثال الجدلي لا الواقعي، إذا وجدنا الرسول يأمر بإعطاء الصدقة للأغنياء بدلاً من الفقراء وأمامنا قول الله تعالى الذي بلغه الرسول إلينا {إنما الصدقات للفقراء}، ولم يكن الغني من أي صنف من الأصناف السبعة الأخرى ولنفرض جدلاً أنه لا يوجد إلا أمر بإعطاء الصدقة للفقراء، ثم وجدنا شخصاً هو في الواقع المشهود غني، فقلنا للرسول "يا رسول الله فلان غني وليس فقيراً فلماذا تعطيه من الصدقة؟" فإن قال "هو غني لكن أنا أريد أن أعطيه وإن كان الله قال أن الصدقة للفقير، فأنتم مأمورون بطاعتي" فهذا الفرض المحال الذي لم يحدث ولن يحدث، على فرض وقوعه يجيز عصيان أمره لأنه في هذه الحالة ليس رسولاً بل هو يأمر من عند نفسه كبشر أو حتى تابع هوى كأن يقسم لغني يحبّه ويدع فقيراً لا يحبّه. كذلك مثلاً، قال الله {اذكروا الله ذكراً كثيراً} فإذا أمر الرسول بأن نذكر الله ألف مرّة، فهذا أمر واجب الطاعة بحكم آية الطاعة، لأن الألف داخلة تحت كلمة {كثيراً}، لكن نقول بأن أمر الرسول غير أمر الله باعتبار أن الرسول لو أمر بالذكر ألف مرّة ثم جاء شخص وذكر سبعة آلاف مرّة وجاء ثالث فذكر سبعين مرّة، فلا يمكن القول بأن صورة أمر الرسول هي الاحتمال الوحيد واللون الوحيد لأمر الله، بل الرسول نفسه إن أمر في يوم بالذكر ألف وبعدها سبعين وبعدها عشرة فلا تعارض بينها بالعين القرآنية لأنها كلها صحيحة ومندرجة تحت أمر الله وفي دائرته.

بالتالي، أمر الله أوسع دائرة من أمر الرسول. أمر الله أعلى قد يكون مجملاً وقد يكون مفصلاً، فإذا كان مجملاً كان اختيار الرسول لتفصيل من التفصيلات الممكنة تابعاً لأمر الله من حيث اتباعه للأمر المجمل لكنه مغاير لأمر الله من حيث إمكان وجود تفصيل آخر تابع لنفس الأمر المجمل. فإذا كان أمر الله مفصلاً كان أمر الرسول تطبيقاً وتنزيلاً للأمر المفصل على الحوادث والوقائع الجزئية. لكن الرسول لا يقيّد أمر الله المطلق تقييداً تاماً بحيث يكون من عمل بأمر الرسول المقيد وعمل بأمر آخر مقيد من العاصين لأمر الرسول، لأنه لا يقيّد أمر الله المطلق إلا الله تعالى نفسه بأمر جديد يفصّله، ومثال ذلك قصّة البقرة، قال موسى {إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة} فكان هذا أمراً من أمر الله وليس من أمر موسى رسول الله، لذلك لما أرادوا التفصيل والتقييد لم يقولوا لموسى "يا موسى بيّن لنا ما هي"، لكن قالوا له {ادعُ لنا ربّك يبيّن لنا ما هي}، ولما قالوا ذلك لم يقيّد موسى البقرة بصفات لا برأيه ولا بسلطانه كرسول

ولا هو ذمهم ونهاهم عن مثل ذلك الطلب بالرجوع إلى ربه، بل قال {إنه يقول إنها بقرة صفراء} وهكذا في كل مرّة طلبوا قيداً جديداً لأمر الله كان الله تعالى هو الذي {يقول} وليس موسى. لكن بعد ذلك مع هارون مثلاً، قال موسى لهارون {أفعصيت أمري} فنسب الأمر لموسى لأنه كان أمره هو كرسول وليس أمراً لله، وعبّر الله عن أمر موسى لهارون هكذا {قال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين} فنسب الله القول لموسى، خلافاً لقصّة البقرة التي نسب موسى فيها الأمر لله {إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة}. إذن، أمر الله شيء، وأمر رسول الله شيء آخر، لكن رسول الله تابع لأمر الله إما بتخصيصه بصورة من صوره المحتملة وإما بتنزيله تنزيلاً صحيحاً على الوقائع الجزئية الحادثة.

ومن هنا نفهم أصل الصلاة ذات الحركات والكلمات. فهي صلاة رسولية، هي كذلك ولها قيمتها بشرط أن تكون ممن يقيم الصلاة الإلهية. لكن مَن لا يقيم الصلاة الإلهية، فإن الرسولية حينها تستحيل وتتغير طبيعتها وآثارها وتصبح ما سمّيناه في كتابنا هذا بالصلاة التقليدية، من حيث تقليده غيره في أمر لا يعقله وكذلك تقليده صورة حركات وألفاظ كالقرد المسوخ بلا روح. وتجد هذا في الروايات الصحيحة النقل من قبيل قول النبي {حتى تعلموا صلاتي} فنسب الصلاة له. وقال {صلّوا كما رأيتموني أصلّي} فنسب أيضاً الصلاة له، ولم يقل: صلّوا كما قال الله في القرءان أن تُصلّوا، أو عبارة نحوها. ومن هنا تجد الأمّة عموماً، مهما اختلفت في تفاصيل صلاة النبي، فإنها مجتمعة على أصل الأمر وأصوله الكلية فلا نعلم أحداً من أمّة القرءان في هذه الصلوات الخمس يصلّي مثلاً بحيث يبدأ بالركوع قبل القيام أو لا يقرأ القرءان أو يستجيز مثلاً أن يقرأ شعراً بدلاً من سورة ونحو ذلك. الأمّة التي اجتمعت على حفظ القرءان ونقله هي الأمّة التي اجتمعت على نسبة هذه الصلاة وأخذها جيلاً بعد جيل إلى رسول الله، فهذا القدر محفوظ. وأما كيفية التعامل مع اختلاف التفاصيل، فهنا تأتي أهمّية الصلاة القرآنية ومعرفة العلاقة بين أمر الله وأمر الرسول. فلابد لكل مَن يأتي بتفصيل يخالف فيه غيره إما أن يعرضه على كتاب الله ودقائقه وأسراره حتى يستخرج أصله الذي حكم الرسول به منه وتبع أمر الله فيه، وإما بأن يقبل بالاختلافات في التفاصيل كما يقبل اختلاف القراءات أو درجات الفهم في الآيات مثلاً.

نعم، الإشكال واقع بسبب غيبة الرسول. لو كنّا في زمن الرسول، فيمكن معرفة ما كان يقوم به منه مباشرة. فهذا يؤدي بالضرورة إلى مخارج، إذ لا يجوز أن يكون في الدين شيء يفرّق الأمّة بلا مخرج منه لا قرآني ولا عقلي إذ لا يجمع الأمّة إلا قرءان أو عقل. وأما الروايات فمختلفة، والآراء في نقلة الروايات مختلفة اختلافاً لا حلّ له بالعلم.

المخرج الأول، أن نقول: بما أن الرسول الذي أمر بهذه الصورة من الصلاة القرآنية غير حاضر ليبيّن للأمّة تفاصيل أمره، من قبيل "أفئن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم"، فلا يجوز الانقلاب على العقب والردة إلى التفرق والاختلاف والتحارب بسبب موت أو قتل محمد رسول الله، فالنتيجة هي وجوب أو جواز ترك هذه الصورة بالكلية. لأن القرءان أمرنا بطاعة الرسول، ولم يأمرنا بتصديق ما يقوله فلان أو علان عن أمر الرسول. فالرسول المطاع هو الحي الحاضر الآمر الناهي، كما كان الرسول في زمن أزواجه وبناته وأصحابه. لذلك، ليس من عصيان الرسول، التوقف عن طاعة أمر أنت غير شاهد وغير متيقن أنه أمر الرسول. فتوقّفك عن الحكم بالأمر، وتركه لله والرجوع إلى أصل أمر الله في كتابه مع اتخاذ لون وشكل له بحسب حالك، أيضاً من قبيل {اذبحوا بقرة} فيحق لك ذبح أي بقرة طالما أنها بقرة.

في كتاب الله حسن الظن بالمؤمنين والمؤمنات حتى في أمورهم الشخصية. قال الله {ظن المؤمنين والمؤمنات بأنفسهم خيراً}، بالتالي حسن الظن بأن نقلة الروايات عن رسول الله إن ثبت أنهم من المؤمنين والمؤمنات قد نقلوا صدقاً هو أيضاً من أمر القرءان. ومن صفات النبي أنه {يؤمن للمؤمنين} ومن معاني ذلك أنه يصدقهم ويأمن لهم، وهذا خلاف تكذيبهم وسوء الظن بهم. ويعزز هذا قوله {يتبع غير سبيل المؤمنين} وقوله {ءامن الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون} فجمع بينهم وبين الرسول، وقوله {ءامنوا كما آمن الناس} وهم أهل الإيمان فجعل الإيمان مثلهم حقاً ودعوة نافعة، وقوله {اغفر لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان} والذي يدل على حسن الظن والعلاقة بهم وليست علاقة سوء ظن ورفض لهم ولو اعتبرناهم كذبة خونة لما استغفرنا لهم، وقوله {ما كان الله ليضيع إيمانكم} وذكر اتباع الرسول في أمر القبلة وهي من رضا الرسول كما عرفنا فبيّن أن اتباع الرسول ولو في مراضيه التابعة لأمر الله من حيث أن القبلة أيا كانت فهي قبلة حق إذ "فثمّ وجه الله إن الله واسع" فكان رضا الرسول تابع للحق الواسع فجعل الله ذلك إيماناً. ثم قال الله {إذا جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا} وقال {أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون} فبيّن أن حكم المؤمن ليس مثل حكم الفاسق ولا ينبغي التسوية بينهما في قضية العدل، فإذا كان نبأ الفاسق لابد من التبيّن منه وليس رفضه لفسقه فكيف بالمؤمن إذن فنبأ المؤمن من باب أولى أن يكون مقبولاً مُصدَّقاً إما بدون تبيّن لأننا نحسن الظن به ونفترض صدقه وحتى يتميّز عن الفاسق الذي نتبيّن من أنبائه التي يجئ بها وإما بعد التبيّن من باب البحث عن مدى حفظه للنبأ الذي جاءنا به وليس تشكيكاً في صدقه. كل ما سبق وما يجري مجراه، يدعونا إلى أصل مهم وهو أصل تولّي كل مؤمن ومؤمنة وتحسين الظن بهم في أنفسهم وافتراض صدق أنبائهم. لكن كل هذا كما ترى مبني على أن صاحب النبأ

مؤمن أو مؤمنة، أي غير فاسق ولا منافق ولا كافر ولا بقية الصفات المنافية للإيمان في القرءان.

بناء على ذلك، إذا جاءتنا أنباء عن المؤمنين والمؤمنات ممن سبقنا، فيها بيان عن أمر رسول الله، فالأصل تصديقهم وقبولها كأوامر رسولية.

ما ذكرناه من نسبة هذه الصلاة المخصوصة للرسول، ليس من قبيل فهم القرءان ذاته، فلا نستطيع أن ننسب للرسول حتى هذه الصلاة من جهة كتاب الله، بل النسبة إن جازت فهي من قبيل البحث التاريخي ونسبة الأقوال والأفعال إلى الأشخاص الذين كانوا في التاريخ. والتاريخ ليس ديناً يُدان الله به في الرؤية القرآنية، بل {تلك أمّة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسألون عمّا كانوا يعملون}.

ومن جهة أخرى، قرآنية أيضاً، ليس من الإنصاف للرسول أي رسول أن ننسب له أمراً بناء على ما رآه الناس منه أو حتى قاله لبعض الناس في زمنه، من حيث أننا لا ندري كل الملابسات والظروف التي أمر بها بما أمر به، فلعلّه اختار صورة وهيئة لأمر إلهي واسع لاعتبارات هو أدرى به ولم يكشفها أو لم يكتبها وينقلها للأمّة نقلاً كنقل القرءان أو لعله إن كان في زماننا لجاء بهيئة أو صورة أخرى لذات الأمر الإلهي الواسع أو لعله يفرّق بين الأشخاص في تفاصيل الأوامر الجزئية. فهي نسبة ظنّية من حيث أنها تاريخ، ونسبة ظنّية ضعيفة من حيث أنها صورية غير معللة وصاحبها غير حاضر ليفسّرها لزمن غير زمنه ولأناس غير الأناس الذين كان بينهم في حينه. هذه الأمور وإن كانت معقولة بنفسها، إلا أنه أيضاً يمكن الإتيان بشواهد من الروايات على كل واحدة منها. فمثلاً، في رواية عن علي أن النبي نهاه عن قراءة القرءان في الركوع والسجود، ثم قال علي "أقول نهاني ولا أقول نهاكم" أو عبارة نحوها، فميّز بين نهي النبي له هو وبين نهي النبي لغيره، هذا بالرغم من كون الأمر متعلق بالقراءة والركوع والسجود وهي أمور المفروض أنها لعامّة الأمّة. كذلك مثلاً رواية استحلال الحرم ساعة من نهار وقول النبي أن هذا أمر يختص هو به حتى لا يقول أحد أن هذا أمر جائز لمن بعده بناء على عمل النبي به. وروايات أخرى كثيرة يمكن ذكرها من باب الاستشهاد فقط، ولا ندخل في تفاصيلها. فحتى إن لم نجد مثل هذه الروايات فالمعنى معقول، فإذا كانت موجودة فالأمر أحسن وأيسر.

الآية تقول {لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى} وذلك لأنهم كفروا ولأنهم {لا يعقلون} كما في آية أخرى. فمن علامة النفاق الكسل في الصلاة، فالصلاة معيار وميزان وفرقان. فإذا نظرنا الآن، وقرأنا التاريخ، سنجد أن الصلاة التقليدية يقوم بها ليس فقط المنافق بل الجبّار الطاغية الظالم

والجاهل الفاسق والغافل المجرم وجميع أصناف الناس يمكن أن يقوموا بها. لكن إذا جئنا إلى الصلاة القرآنية بشروطها ومقاصدها المفصّلة فيه، فسنجد أنه لا يقوم بها فعلاً إلا أهل الإيمان، وينشطون لها ويحبّونها، وتجد فعلاً مَن في قلبه مرض وبقية الظلمات إما لا يأتيها وإما يكسل فيها. هذا وجه.

لكن قد يقال: كما أن إنفاق المال له صورة لذلك قال {لا ينفقون إلا وهم كارهون}، فكذلك الصلاة لها صورة بدليل {لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى} وقال {إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا} فهذا يدل على أن للصلاة صورة ظاهرة تقام في جماعة الناس ويمكن أن يرى بعضهم بعضاً فيها. أقول: نعم هذا حق وظاهر في الآية، لكن الآية لا تدلّ على نوعية هذه الصورة بالتحديد. فإذا جلسنا مثلاً لسماع قراءة قارئ للقرءان علينا، أو جلسنا لتدارس القرءآن معاً، فهذه أيضاً صورة جماعية يمكن أن يأتي شخص لهذه الجماعة ولا يكون قاصداً لتعقل القرءان وذكر الله بل لغرض دنيوية أو رياء أو سمعة أو نحو ذلك وسترى فعلاً على هذا الشخص عادةً أنه كما وصفه الله {كسالى} كسل العقل لا كسل الجسم فقط، فإنه حتى الصلاة التقليدية ليست متعبة للجسم فهي هيئة بسيطة سهلة وكثير من أعمال الناس اليومية البدنية أصعب منها بكثير. ويوجد شاهد على هذا المعنى حتى من الروايات، كما في حديث مجالس الذكر الذي تأتيه الملائكة فيغفر الله لكل مَن في مجلس تسبيح وتهليل وتكبير وتحميد وسؤال، فذكرت الرواية أن الله يغفر لكل مَن في المجلس حتى {فلان} الذي هو {رجل خطّاء إنّما مرّ فجلس معهم} فهذا مثال على رجل ليس من أهل الذكر وقصده منه ليس أصل الذكر، فكما يمكن تصوّر حالة هذا الخطّاء الذي جلس بغير قصد الذكر كذلك يمكن تصوّر حالة المنافق المرائي ونحوه. إذن، الآية تدلّ على الصلاة الجماعية والعلنية، لكن لا تدلّ على نوعية أو هيئة هذه الصلاة من حيث كون الحركات أو الألفاظ مقصودة لذاتها أو لها اعتبار جوهري في تحديد حقيقة الصلاة.

إلا أننا نرى في الآية التالية التي تذكر {فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم} شاهداً على معنى صلاة الكسالى وإنفاق الكاره. وذلك من قوله تعالى في سورة المنافقون {إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله} فهنا لدينا مجئ المنافق إلى رسول الله، ولدينا قوله للرسول. فالمجئ والقول، كلاهما مبني على الكذب و{اتخذوا أيمانهم جُنّة}. فكما قال هنا {جاءك} و {قالوا}، قال هناك {يأتون الصلاة} و {لا ينفقون}، أي إتيان الرسول لسماع القرءان هو صلاة، وإعطاء القول للرسول والشهادة فهو إنفاق. لذلك تجدهم في آية أخرى يقولون بعد الخروج من عند الرسول وسماع القرءآن {ماذا قال آنفا} فلا يبذلون حتى جهداً عقلياً لفهم ما قاله الرسول، أو يقولون {ماذا أراد الله بهذا مَثَلا} {وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون}،

فالمنافق كسول العقل لا يريد تحريكه وإعماله لفهم القرءان وأمثاله وبيان الرسول وكلامه. وقال فيهم أيضاً {إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم} والجسم صورة العلم كما في {زاده بسطة في العلم والجسم} أي الجسم هو الصورة والظاهر، كما أن العلم هو الروح والباطن. فالمنافق تركيزه على الجسم وعلى القول المُعجِب ولو كان شهادة كذب. وهنا نرى أمراً خطيراً في الصلاة التقليدية، فإنها جسم وقول وشهادة صورية من أناس ليس فيهم العلم ولا الحق والعقل وبرهانه، فتجد إنساناً لعله لا يعرف الفرق ما بين وحدة الله ووحدة الشجرة التي أمام بيته يقول ليل نهار "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله"، فمن أين قال هذا وبأي حق قاله؟ نعم المعنى حق كما أن قول المنافقين {نشهد إنك لرسول الله} حق أيضاً، ومع ذلك سمّاه الله كذباً، والملفت للنظر أنه لا يوجد في القرءآن كله أي مؤمن شهد بهذا النحو لأي رسول أو نبي بنفس ما شهد به هؤلاء المنافقون، يعني لا يوجد لدينا تعبير {نشهد أنك لرسول الله} أو أمر الله لأحد بأن يشهد صورياً بهذه الطريقة. نعم، يوجد في القرءان بينات، فمن تبيّن له فهو مأمور بأن لا يكتم الشهادة، لكن الشهادة هنا من اسمها فرع الشهود، فالشهود للحق أولاً ثم الشهادة به بالنطق ثانياً، {ولا تكتموا الشهادة ومَن يكتمها فإنه آثم قلبه} فهذا بالنسبة لما عرفه القلب يقيناً وتبيّن له كما قال في صاحب الحمار {فلما تبيّن له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير} فتبيّن له أولاً ثم قال ثانياً. {إلا مَن شهد بالحق وهم يعلمون} فلا يكفي أن تشهد بالحق بل لابد من العلم، فالعلم بالحق أولاً والشهادة به ثانياً. هذه الطريقة هي التي تولّدها الصلاة القرآنية، لأنها قراءة وتعقل وفهم ونظر في البينات. ثم بعد ذلك يظهر ما يظهر بالجسم والشهادة القولية.

الكسل، علامة النفاق، مشهود في قراءة القرءان (القراءة بمعنى التعقل) في المواقيت. وأما ما سوى ذلك من أمور الجسم والشهادة اللفظية فشيء يقوم به حتى أظلم وأجهل خلق الله وأهل الدرك الأسفل من النار. أو على أقلّ تقدير، هو معنى ظاهر في الصلاة القرآنية أكثر من ظهوره في الصلاة التقليدية. وأقلّ أقلّ تقدير، هو أنهما مستويان في ذلك، فليس الوصف في الآية أولى بالصلاة التقليدية منه بالصلاة القرآنية.

...

ج- معنى {وأطيعوا الرسول} يحتمل خمس أمور على الأقلّ، تجدها بنسب مختلفة في الأمّة. قد عرفنا أمر الله من كتابه، لكن ما معنى {أطيعوا الرسول}؟

القول الأول: لابد من رسول جديد حي معاصر. إذا نظرنا في كل أسباب بعثة رسول جديد، أو رسل فإن الرسل قد تتعدد {فعززنا بثالث فقالوا إنّا إليكم مرسلون}، والأنبياء قد يتعددون في الزمن الواحد مثل {أرسلنا موسى وهارون} {أخاه هارون نبيا}، إذا نظرنا في كل أسباب البعثة سنجدها قائمة في الأمّة اليوم. فلا يوجد حجّة يمكن أن تبرر بعثة الرسول قبل أربعة عشر قرنا بالرغم من وجود أديان أخرى في الأرض، إلا ويوجد مثلها أو ما هو أولى منها اليوم.

إن قيل: لأن التوحيد دخله تشويه. نقول: أوّلاً، عرّف التوحيد إسلامياً بما شئت ونحن نأتيك بكتب ودعاة له حتى من قبل الإسلام المحمدي. ثانياً، في المسلمين تجد أنواع مختلفة من التوحيد بدءاً من الوحدة المطلقة لابن سبعين إلى الوحدة الشخصية لابن عربي إلى الوحدة العددية، إلى الاعتقاد بأن لله تعالى حدّ وله صورة وأعضاء وهو على هيئة شاب أمرد، إلى تأليه بعض الناس كعلي أو نسبة الصفات الإلهية لمحمد بوجه ما، وقل ما شئت وستجد في الأمّة مَن يقول به. وكل واحد منهم يعتقد بأنه على الحق المبين وصلب الإسلام الذي جاء به النبي. ويكفينا لردّ هذا برواية مشهورة وهي "لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة" وهذا المعنى من ظهور سنن الأولين في الآخرين ودوران ذلك أمر قرآني أصيل. وانظر تعدد مفاهيم التوحيد في الأمّة، وتكفير بعضهم بعضاً بسبب ذلك، أو تبديعهم مع كل ما يلازم ذلك من قسوة وافتراق وتهمة غالباً، وستجد أن ما كان من قبل هو عين ما نحن فيه اليوم بشكل أو بآخر.

إن قيل: لأن النصوص الدينية تحرّفت. نقول: أوّلاً، يوجد قول بأن التحريف في نصوص السابقين كان في المعنى وليس اللفظ. ثانياً، على فرض أنه في اللفظ، فيوجد في هذه الأمّة أيضاً ومن فرق مختلفة مَن يقول بتحريف القرءان إما بالزيادة وإما بالنقصان وإما بالتغيير وتبديل مواضع الآيات أو بعض جملها، أو يوجد مَن يعتبر تعدد القراءات والاختلاف فيها هو من صنف اختلاف الذين من قبل وعلى هذا مثلاً يقال بأن جمع القرءآن على عهد عثمان كان من أجل منع اختلاف هذه الأمّة في كتاب ربها كما اختلفت الأمم السابقة فمن الناس من يعتقد بأن حرق عثمان المصاحف المخالفة يدل على حدوث نوع من النقصان في هذا الباب ولا نريد الدخول في كيف يرد كل فريق على الآخر لكن هذا القول موجود، ومن الظاهر أن الرسول لو كان بيننا اليوم كان بالإمكان بسهولة أن نذهب إليه ونقول له "يا رسول الله، سورة الفلق والناس من سور القرءان أم أنها تعويذة من عندك للحسن والحسين كما يقول ابن مسعود؟" أو "يا رسول الله، هل هذه القراءات كلها من عندك أم أن شيوخنا كذبوا علينا وأراد كل واحد التصدّر فاختلق قراءة؟" ونحو ذلك من أمور ليس لدينا فيها اليوم إلا الظنّ أو الظن الغالب من

حيث البحث الدراسي الذهني. ثالثاً، حتى على فرض سلامة النص لفظاً، فإن العبرة من النص معناه، ولا قيمة لحفظ صورة نص مع الاختلاف بلا مخرج حاسم وفاصل من معناه، فهذا المفسّر يقول شيئاً وذاك يقول غيره ويصل الخلاف إلى حدود ليس فقط التناقض النظري بل التقاتل الدموي، فهذا يقول "اقتلوا المشركين حيث ثقفتموهم" تعني الحروب الدينية لفرض الدولة أو حتى الديانة، وذاك يقول لا بل تعني قتال مَن قاتلنا منهم ولا يجوز الابتداء في ذلك، وعلى كل قول بُنيت ممالك وسقطت أمم وتغيّرت عقائد ووضعت شرائع، ولو كان الرسول بيننا لذهبنا إليه وقلنا له "يا رسول الله، هل تستبيح قتال مَن لا يقاتلك؟ هل تريد أن نفرض الإسلام على الناس كرهاً ونكره العرب خصوصاً أو المشركين على الإسلام أو نقتلهم أم لا؟ هل تقتل المرتد أم لا؟ وقل مثل هذا في كل مسائل العلم والعمل. في القرءان لدينا شاهد على محورية دور الرسول، فلا توجد لدينا أمّة بدون رسول أو نبي يقوم أمرها، من أول القرءان عند قصّة آدم إلى آخر قصصه في محمد، دائماً إنسان من لدن الله يبيّن ببيان فاصل أمر الله ودينه، وليست القضية فلسفية ونظرية وظنّية حتى يقول بعض الفقهاء المشهورين "هذا رأيي" و "إن نظن إلا ظنّاً وما نحن بمستيقنين". كما رأينا في قصة البقرة مثلاً، لم يأخذوا أمر {اذبحوا بقرة} ويذهبوا به، حتى قالوا {ادع لنا ربّك يبين لنا}، كذلك في كل الأمور، بيان رسول من عند ربه، هكذا يقوم الدين. وتجد مثل هذا في الروايات أيضاً، حتى إنهم كانوا يرجعون للرسول في كل صغيرة وكبيرة فيحكم ويقضي بينهم، حكم رجل حي حاضر ناطق فاصل. فحتى إذا كانت النصوص الدينية الإسلامية محفوظة، كل القرءآن وكل الروايات، من أولها إلى آخرها، حتى إذا سلّمنا ذلك فإن الفهم والعبرة بالفهم يقع فيه اختلاف، واختلاف كثير في كل عقيدة وكل شريعة وكل مسألة تقريباً ولا يكاد يوجد شيء أجمع عليه علماء الأمّة أو أفراد الأمّة بل ولا مسألة الإجماع هذه لم تُجمع عليها الأمّة ! فإذا كانت الأمّة لم تُجمع على تعريف الإجماع، ولا تعريف الأمّة، ولا تعريف كيفية تحصيل الإجماع، ولا أنواع الإجماع، ولا رتبة كل نوع، ولا علاقة الإجماع بغيره من الأدلة، فكيف يقال بأن الأمّة أجمعت وأن هذا حجّة إذا. نعم، إذا أرادت كل فرقة أو طائفة من فرقة أو جماعة من طائفة أو فرد من جماعة أن يدعي هكذا مجرداً بأن ما هو عليه هو ما يقتضيه الدين وما أجمعت عليه الأمّة فهذا أمر آخر، وسنذكره في القول الثاني بعد هذا إن شاء الله، لكن من الواضح أن هذا ليس مثل بيان الرسول المأمور الذين ءامنوا بطاعته. ويكفيك لإثبات الاختلاف أن ترى ما يقوله أهل كل فرقة في غيرها، وأن تنظر ولو نظرة بسيطة في كتب الفرق والفقه لترى بعينيك، أو تنظر إلى ما عليه حال الأمّة في مشارقها ومغاربها فضلاً عن غير الأمّة من بقية الناس لترى ذلك أيضاً. لن تجد اختلافاً في الأمم السابقة على بعثة النبي، لا العرب ولا غيرهم، إلا وتستطيع أن تأتي بمثله أو أكبر منه

في هذه الأمّة. فإذا كانت بعثة الرسول بكتاب جديد هي من أجل الإتيان بنصّ جديد محفوظ ومفهوم بتعريف رسول من عند الله، فالأمّة والأمم كلها اليوم أيضاً بحاجة لمثل ذلك ولنفس السبب تماماً.

إن قيل: لأن معجزات الأديان السابقة ذهبت فبعث الله النبي بالقرءان كمعجزة. نقول: على فرض أن تعريف معجزة القرءان هو البلاغة والتحدي بعدم الإتيان بمثله بالمعنى الصوري كما هو الشائع، على فرض ذلك، فإن هذا كان لا يصلح إلا للعرب ممن البلاغة آية لهم، فأصحاب هذا القول أنفسهم يقولون بأن الله بعث موسى بالعصا واليد لأن قومه اشتهروا بالسحر، وبعث عيسى بالشفاء والإحياء لأن قومه اشتهروا بالطب، وبعث محمداً بالبلاغة لأن قومه اشتهروا بالأدب، حسناً، قومنا اليوم وهذه الأمم شرقاً وغرباً مشتهرة بماذا اليوم؟ قطعاً ليس بالبلاغة، بل لعل أكثر العرب أنفسهم اليوم بل وأكثر أهل مكة والمدينة لا يعرفون اليوم ما وجه بلاغة القرءآن الإعجازية هذا إن عرف أكثرهم كيفية الإعراب فضلاً عن البلاغة وأسرارها. نعم، في عصرنا هذا أكبر شيء هو العلم الطبيعي والتقنية، هو ما يوازي كما يقال السحر في عصر موسى والطب في عصر عيسى والبلاغة في عصر محمد. فالشيء الوحيد الذي يمكن أن يلفت أنظار ويجذب قلوب كل الأمم للإعجاز هو أمر يتعلق بالعلم الطبيعي والتقنية. ولا تقل لي أن " الإعجاز العلمي في القرءان" هو الحل، لأن هذه المهزلة الفكرية لا تناسب حتى صبيان الفكر فضلاً عن غيرهم، فهؤلاء أقصى ما يقومون به هو أخذ شيء راج في عصرهم مما اكتشفهم وصنعه غيرهم ثم يقولون "انظروا هذا في القرءان" وقد فعلوا ذلك من قبل وطبّقوا الآيات على المكتشفات والمخترعات ثم لما تغيّرت العلوم وتطورت نسوا أو تناسوا ذلك، فإذا كانوا صادقين بوجود هذا النوع من الإعجاز في هذا القرءان العربي فليأتونا باكتشاف جديد وبطريقة صنع شيء بتقنية جديدة لم يعرفها أحد، ولابد أن تظهر أيضاً بغير سبب معتاد كما انقلبت العصا حية أو شفي شخص بمسحة عيسى أو نطق الأمّي بالعلوم والبلاغة، فالخلاصة هي أن فكرة الإعجاز هذه والتي لم يتفق عليها إما جملة وإما تفصيلاً حتى المسلمون لا يمكن أن تكون حجّة إعجازية بالمعنى المشهور لذلك، بل التحقيق أن أصحاب الإعجاز العلمي هؤلاء يقعون تحت رواية "مَن فسّر القرءان برأيه فليتبوأ مقعده من النار" لأن لديهم رأي مسبق يجلبونه ويبحثون عن آية له ليلصقوه بها. كلا. الشيء الذي يوازي معجزات الأنبياء بالمعنى المشهور هو أن يأتي مثلاً رجل أمّي اليوم ثم يذهب إلى وكالة ناسا الفضائية ويضع لهم المعادلات ويرسم لهم خطة صناعة صاروخ فضائي مثلاً فشل كل علماء العصر فيهما وعجزوا عنهما ثم ينجح قوله هذا من أول مرة، أو شيء من هذا القبيل في الأمور العلمية التقنية وليس النظرية المجردة فإن أشهر ما في عصرنا هو العلم الطبيعي المؤدي إلى الحلّ التقني وإلا فليس العصر عصر

السباحة في الأفكار المجردة. لكن على أية حال، من المقطوع به أن بلاغة القرءان العربية ليست معجزة بالنسبة لأكثر المسلمين بل لأكثر العرب فضلاً عن أن تكون للناس عموماً.

إن قيل: كانت الأمم متفرقة فجاء النبي ليجمعها والعرب خصوصاً لا تجمعهم إلا دعوة دينية. نقول: الأمم لا تزال متفرقة، وأهل الإسلام من العرب والعجم هم من أشدّ وأسوأ الأمم تفرقاً وتحارباً وتعصباً أو ينافسون الأمم الأخرى على المركز الأول في هذه المسابقة المظلمة. ولن تجد أمراً في الجاهلية إلا وستجد مثله اليوم، بل لعل بعض أمور الجاهلية كانت أفضل مما عليه العرب اليوم، حتى سمعت شيخاً أزهرياً بالأمس يقول بأنه يتمنّى لو نكون اليوم على ما كان عليه عرب الجاهلية. بل يكفيك ما تجده من انتشار لحديث "غربة الإسلام" أي "بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ" طبعاً وتطبيق كل جماعة لهذا الحديث على نفسها، لكن يكفي أن في الحديث شاهداً على عودة الأمر كما بدأ. وبناء على مقولة "لا يُصلح آخر هذه الأمّة إلا بما صلح به أولها"، وأولها لم يصلح إلا بالرسول، فكذلك آخرها لا يصلح إلا برسول من عند الله.

على هذا النمط، انظر أي حجّة يستعملها علماء أي عقيدة إسلامية لتبرير أصل بعث الرسل عموماً أو بعث محمد رسولنا خصوصاً، وستجد كل هذه الحجج موجودة اليوم إما كما كانت بالأمس أو بما هو أولى مما كان قبل بعثه.

فإن قلت: لكن نبينا محمد آخر رسول، فلا يمكن أن يكون هذا حلّاً. نقول: أوّلاً ما ذكرناه وغيره يردّ على هذه العقيدة أساساً. ثانياً، حتى عند بعثة الرسول كانت الأديان الأخرى تضع قيوداً وشروطاً تحافظ فيه على تكوينها وأمرها بادعاء أنه لا يمكن أن يخرج الدين عنها أو أن يأتي شخص بأمر جديد ومغاير بعدها. نعم، هذا الأمر في العقائد الإسلامية أظهر منه في غيره، ويمكن لشخص أن يجادل بأنه لا توجد أمّة قبل الأمّة الإسلامية ادعت أن الرسالة انتهت برسولها أو منشئها، بل كلهم فتح المجال لظهور بعثة جديدة أو نبي جديد، إلا أهل الإسلام. وهذه حجة قوية باعتبار. لكن يمكن النقاش فيها من وجوه، منها ظنّية هذا الفهم، ومنها أن المسلمين أنفسهم لم يجزموا بانقطاع كل الوحي مطلقاً كقولهم بأن الرؤيا جزء من النبوة أو قولهم بأن لديهم إمام أو شيخ عارف أو مُحَدَّث مُلهَم يخاطبه الله وتتنزل عليه الملائكة أو نحو ذلك، ومنها انتشار عقيدة عودة عيسى وهي بغض النظر عن كونها نزول جديد لرسول قديم إلا أنه اعتراف بإتيان رسول من الله للعالَم على أية حال سواء كان قديماً أو جديداً فتلك صفة فرعية فالأصل ثابت ومنها أيضاً انتظار المهدي وصفاته التي تعلو على صفات رجل عادي من علماء المسلمين يفكّر ويدرس بالمعنى الشائع في الأمّة، ومنها أيضاً وجه ردّ ذات العقيدة بما ورد في القرءان من كون بعثة الرسل أمر طبيعي مثل شروق الشمس ونزول المطر وهي ونحوها

الحجج التي استعملها القرءآن لتثبيث أصل الإيمان بمحمد كرسول والقرءان ككتاب من الرحمن مُحدَث. ووجوه أخرى.

فهذا إذن ملخص القول الأول، وهو الحاجة إلى رسول جديد من عند الله.

القول الثاني: الفرد رسول نفسه والجماعة تقوم بالشورى.

بمعنى أننا نأخذ القرءان، كل فرد يأخذ القرءان على أنه أمر الله، ثم يكون هو بالنسبة لنفسه مصداق الرسول لنفسه، بحيث يخصص وينزّل ويطبّق بحسب ما يعقله ويعلمه في حدود نفسه. فمثلاً أنا أقرأ {أنفقوا} وأقرأ {يسألونك ماذا ينفقون قل العفو} ونحوها من آيات الإنفاق، فأحدد لنفسي بحسب فهمي وظروفي الخاصة التي أعلمها هذه الآيات فأحدد نسبة الإنفاق من مالي ومتى وكيف ولمن بحسب تشخيصي للفقراء والمساكين، وهكذا في كل أمر. فكل فرد يأخذ أمر الله من القرءان، ويطبّق الأمر على نفسه فيكون عقله التابع لكتاب الله هو رسول الله له.

وأما بالنسبة للأمور التي تختص بالجماعة، فلابد من الشورى العامّة. أي كل فرد ستنطبق عليه أحكام الجماعة، لابد أن يكون له قول ومدخل ومشاركة في صنع القرار العام. {وأمرهم شورى بينهم}. وما اتفقت عليه الأمّة بالشورى العامّة، هو أمر الرسول لها بمعنى أن الشورى هي رسول الله وما تفرزه الشورى هو أمر الرسول لها.

هذا القول ينبني على التفريق ما بين أمر الله وأمر الرسول. والتفريق ما بين المسؤولية الفردية، والمسؤولية الجماعية. وأن الفرد مسؤول عن نفسه يوم الدين كفرد، بالتالي له حرية اختيار ما يراه لنفسه في أمر الدين. وأما بالنسبة للجماعة، فكل فرد مساوي من حيث نفسه لكل فرد آخر، فلابد أن يكون للكل مدخل ومشاركة على السواء لأن الأمر سينطبق على الكل. فيكون العقل الفردي رسول الله للفرد، والشورى الجماعية رسول الله للجماعة.

وأما من أين سيكوّن الفرد عقله والشورى قولها، فليكن ما يكون، فليس هذا محلّ بحثه، لكن المهم أنه في نهاية المطاف الفرد يتوكل على الله في هداية قلبه، والأمّة تتوكّل على الله في تسيير أمورها، ويبذل كل واحد جهده ويقصد الخير والحق، والله الهادي {ومَن يؤمن بالله يهدِ قلبه} {ومن يتوكّل على الله فهو حسبه}، فالقلب المؤمن المتوكّل هو المهدي وهو النبي لنفسه {يأيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين}.

القول الثالث: القياس على القديم.

وهذا هو المعمول به عموماً في الأمّة الآن، وهو أن تقرأ القرءان والروايات والاجتهادات والآراء على مر العصور، فيختار الفرد والأمّة بناء على قياس الأمور الجديدة على القديمة. فدور المجتهد والمجتهدين هو فقط اكتشاف ما جاء به الرسول في الزمان القديم.

هذا القول تنقيحه كالتالي: الأمر إما أن يكون متغيراً بحسب الظروف، وإما لا لأنه مبني على جوهر متعالي ثابت كأمور الآخرة. فإذا كان من المتغيرات، فهذا يجتهد المجتهدون في تنقيح الظروف والقياس على العلل التي اقتضت حكم الرسول في القديم بذلك الحكم والحكم بمثلها اليوم. وإذا كان من الثوابت، فنحكم اليوم بنفس صورة حكم الرسول بالأمس.

مشاكل هذا القول كثيرة جداً. ويكفي أنه بالرغم من العمل به، الأمّة هي على ما عليه اليوم من التفرق والتقاتل والتنازع.

مشكلة أخرى، كل مشاكل أصل القياس، وكونه ظني بل وهمي واختزالي في كثير من الأمور، من جهات كثيرة منها عدم حفظ جميع حيثيات الأمر القديم والاحتياج إلى معرفة ذلك العصر وظروفه بيقين كما نعرف العصر الحالي وأمورنا بيقين حتى يصح القياس بينهما، ومنها الاختلاف في آراء أهل القياس، واختلافهم في تحديد ما هو الثابت وما هو المتغيّر فمثلاً في مسألة الصلاة هل صورة الصلاة ثابتة أم متغيرة؟ هل الوقت من دلوك الشمس إلى غسق الليل ثابت حتى عند غير العرب كالذين لا يرون الشمس إلا نادراً أو غيرها من المناطق المختلفة في تقدير هذه الأوقات، هل الهيئات الجسمانية وعددها ثابت أم متغير، وما أدرانا هو هذا أم ذاك، وتوجد في حيثيات الصلاة وفي الروايات أيضاً ما يدلك على أنها تأثرت بالظروف مثل اللباس حين لم يأمر النبي بالصلاة في ثوبين لأن الناس حينها لم يكن لكل واحد ثوبين فهل يختلف هذا في زماننا هذا أو لا أقلّ بالنسبة لمن يتوفر لديه اللباس، وهلمّ جرّاً. هذا الكتاب فيه تركيز على الصلاة، لكن هي أهمّ مسألة في الشريعة والدين من وجهه العملي، ولذلك إذا تأسس منهج قوي بها فيمكن معرفة كيفية التعامل مع الأمور الأخرى بنحو أيسر إن شاء الله. نرجع. أصل جواز القياس في الدين أيضاً مما اختلف فيه المسلمون سنّة كالظاهرية وشيعة كالإمامية. فبناء دين على أصل القياس، يعني بالضرورة بناء دين مفترق مختلف يرى أصحاب الفرق أنهم على الحق والآخر على باطل وضلال بغير أمر حاسم وفاصل بينهم من كتاب الله ولا رسول حاضر.

القياس يصنع نبوة بلا نبوة. وثمرته توهم الآخذ بها أنه على دين من الله، والحق أنه على دين من الرأي الشخصي لصاحب القياس، بكل ما فيه من خلل وظنون وأوهام وخرص، حتى على فرض أن كل التفاصيل الأصولية للقياس تمت مراعاتها، وهي ذاتها كما لا يخفى محل نزاع وخلاف أيضاً وتحتمل ذلك على أقلّ تقدير.

ثم القياس يجعل الأمّة تتحجّر على القديم وتجمد عليه. بالرغم من أن الله تعالى حي وجواد ومفيض للحكمة والخير والعلم، ففيه نسيان لحضور الله وعطائه. وكذلك فيه نسبة قول إلى الله ورسوله لم يقولا به بناء على شبه يظنه القائس هو الحجّة.

وقد يؤدي القياس إلى الحكم الجازم على أمر بالكلية، بينما يكون الحق هو الحكم على جزئية من جزئيات الأمر على فرض صحته.

من أصول المحرمات القرآنية القول على الله بغير علم. فلا شيء يدعونا إلى القياس ونسبته إلى دين الله، اللهم إلا قوم أرادوا الفرار من اللوازم الضرورية لعدم وجود رسول حاضر أو وحي جديد أو صلة حية بالله أو نحو ذلك من أمور تجعل مركز السلطة الشرعية يذهب من أيديهم ويشيع في الأمّة، فيقولوا بما يقولون به، وهذا ليس فقط في القياس بل حتى في اعتماد الروايات التاريخية على أنها المظهر الوحيد الصحيح للدين ولتطبيق وتنزيل وتقييد أمر الله في القرءان، فأصحاب الروايات مثل أصحاب القياس، كلاهما يريد أن يجعل التاريخ في لحظة هو الحجّة على الدهر كلّه، إما بواسطة أصل الحديث أو أصل القياس وما يتصل بهما من اعتبار لآراء أصحاب الحديث والقياس لكن من وراء حجاب حتى لا يظهر بأنهم يجعلا عقولهما واختيارهما الدين فيقال لهما "ونحن لدينا عقول واختيار أيضاً"، فيختبئون وراء الرواية والقياس ولا يحكمون إلا بما يشتهون في الحالتين أو بما يُفضّلون من خلف ستارة النزاهة الذهنية والبحث الموضوعي المجرّد في الرواية وفي إعمال القياس.

ينبني على القول على الله بغير علم، القول على رسول الله بغير علم بل القول بغير علم مطلقاً، {لا تقفُ ما ليس لك به علم}. فنسبة قول لرسول الله بغير علم ممنوعة قرآنياً، بل حتى أخلاقياً وإنسانياً فهو نوع من الكذب وتحميل إنسان غائب ما لم يتحمّله فهو نوع من الاتهام والمحاكمة والقضاء على شخص غيابياً بدون حتى فرصة الدفاع عن نفسه. لذلك، إذا دخل احتمال في النسبة، فلا يجوز نسبة الأمر للرسول من حيث لفظه أو مفهومه أو تطبيقه على حادثة أو شخص جديد نحتمل أن الرسول لو كان هنا لحكم بخلاف ذلك. فقد نختار نحن ما فهمناه ونطبقه لأننا اقتنعنا به في أنفسنا، لكن هذا لا يجيز نسبته إلى الرسول نفسه.

القول بغير علم مع عدم جواز الغيبة {لا يغتب بعضكم بعضاً}، هو أيضاً السبب الذي يجعل علم الروايات بصورته الحاضرة أمراً مخالفاً للقرءان والعقل الأخلاقي. لأن تصحيح الرواية يبدأ وإن كان لا ينتهي لكنه ليبدأ بالنظر في سنده، يعني في الرجال أو النساء الذين نقلوه. والحكم على هؤلاء بالجرح يجعل الرواية نازلة عن رتبة الصحيح إلى الحسن أو إلى الضعيف وما إلى ذلك. لكن جرح إنسان غائب لا يستطيع الدفاع عن نفسه، هو نوع ن الغيبة، كما أقرّ بذلك القوم منذ القدم وبرروا جوازه لأنه ضروري للعلم. فإن ثبت جواز ذلك، لنقل من

باب أنه عرّض نفسه للنقد بدخوله طوعاً في عملية النقل فهو أجاز نقد نفسه حين أدخل نفسه في السلسلة، فإن ذلك لا يغني عنّا في معرفة صدق الجرح بيقين أو حتى بظنّ معتبر، وفيه {تلك أمّة قد خلت} ونحن لا ندري تفاصيل كل ما حدث بنحو مرضي من التواريخ. فأقصى ما نخرج به نوع من الظن أو حتى الظن الضعيف. بل قد يكون الناقل كذاباً أفاكاً منافقاً لعيناً، لكن يكون قد صدق في هذه الرواية تحديداً أو حتى يكون ما بلغنا بواسطته هو مما صدق فيه، وقد يكون الشخص صادقاً عدلاً ضابطاً نزيهاً وقل ما شئت لكن يكون في رواية أو أكثر قد كذب أو نسي أو غلط، ونحن لا نملك أصول الروايات حتى نعلم بالقياس عليها هل ضبط أم لم يضبط، وأما النظر إلى ما رواه غيره في الباب فهذا من باب مقابلة الصفر بالصفر لأننا لا نستطيع أن نحكم على الرواية الأولى حتى نحكم على الرواية الأخرى بالقياس على الأول لأن نفس القضية موجودة في كل الروايات على السواء. هذه وغيرها كلها صعوبات وعوائق في أمر تصحيح الروايات. ثم حتى إذا افترضنا صحة السند بأعلى درجة من الصحة، فهذا لا يعني كما يقول أهل الفن أن المتن أيضاً صحيح بل قد يكون شاذاً أو معللاً، والعلل كثيرة ويقع فيها الاختلاف ومن الاختلاف فيها: هل إذا خالف المتن القرءآن يكون معلولاً؟ وما معنى مخالفته للقرءان؟ إذا خلصت من الثمانين عقبة أو أكثر حسب إحصاء البعض أمام من يريد استعمال الروايات كدين، فإنك ستخلص إلى ما الناس عليه اليوم في أحسن الأحوال، وهو التفرق والتشرذم والظنون التي يوهم أصحاب كل واحدة منها أنهم على اليقين المطلق الذي يجدون استعداداً كما فعلوا ويفعلون على قتل وحبس وضرب وتكذيب وتجهيل الآخرين عليه.

القياس على القديم، بمعنى استعمال أصل الرواية كشيء تقيس عليه أو بمعنى استعمال عملية التفكير التي تحكم على الجديد بنفس حكم القديم للاشتراك في العلّة والسبب، كلاهما محاط بعقبات وظنون وتخرصات كثيرة، وأهمّ شيء أنها تجعل المفكّر النسبي يتحوّل إلى رسول إلهي، من حيث أنه ينسب نتيجة تفكيره الشخصي في القديم هو هو الحكم القديم وكأن الرسول حضر في ذهنه وقضى بما قال به. فهذا خلاف القول الثاني، لأن صاحب القول الثاني لا يقول بأن اختياراته القرآنية مثلاً هي ما حكم به الرسول قبل ألف وأربعمائة سنة فيما لا نصّ عليه في القرءان، لكن صاحب القياس، قياس الرواية أو قياس العلّة، يقول بأن حكمه هو عين دين الله ورسوله، وصاحب قياس الرواية أشدّ في هذا من قياس العلّة التي وقعت الاختلاف في نسبتها إلى الدين وحكم الله ورسوله لكن عملياً النتيجة واحدة، وكثير من الأحكام تُفرَض على المسلمين اليوم هي ثمرة قياس علّة والعامّة لا يعلمون ويحسبون أن المفتي أفتاهم والحاكم قضى عليهم بما لو كان رسول الله جالساً مكانه كان سيقضي بمثله.

من آثار دين القياس هذا، الرواية أو العلّة، أن صارت الواجبات والمحرمات في الأمّة كثيرة بنحو غريب بل أجنبي تماماً عن كتاب الله. قرأت بالأمس لبعض الشيعة الإمامية ممن أحصى عدد الواجبات والمحرمات في فقههم، فوجدها تقريباً ١٥٠٠ واجب و ١٥٠٠ محرّم. تصوّر هذا. فإذا كنّا نقرأ في القرءآن استعظام تحريم أو فرض شيء، حتى تكلّم القرءان في السائبة والغنم، فمن أين جاءت هذه الآلاف من الواجبات والمحرمات؟ وتستطيع أن ترى نفس الأمر عند بقية الفرق. التضخيم في الحلال والحرام، والأحكام العملية غير العلمية العقلية الناظرة إلى أمر الآخرة، ووضع القوانين وفرضها على الأمّة باسم الله ورسوله، هذا كله من آثار اعتماد الرواية والعلّة كمصادر للدين بدلاً من كتاب الله، أو إعطائها الأولوية بدلاً منه عملياً أو نظرياً وعملياً. وحدّث ولا حرج طبعاً عن التناقض والتعارض عند أهل الرواية وأهل العلّة. وأحسنهم يريد اختراق حجاب الغيب للوصول إلى قلب الرسول لو كان حاضراً بماذا كان سيحكم، والسبب أنه يريد أن يعطي حكماً قاطعاً دينياً معصوماً أو مقدساً يفرضه على الناس على أنه عين دين الله وأمر رسوله.

القول الرابع: لقاء الرسول.

هذه طريقة صوفية تتجاوز بقية المشاكل التي بالتأكيد تنبهوا لها. ومبناها على أن الرسول هو الآن رسول الله أيضاً، لكنه بدلاً من أن يكون في المدينة المنورة هو في عالَم النور الأعلى، وكما أنه لو كان الرسول هنا بالحسّ كنّا نذهب إلى بالحس، فهو الآن بالنفس فنذهب إلى بالنفس، فنعرج إلى الرسول أو نرجو الله أن يجعنا به في عالَم الغيب، وبعضهم يقول في عالَم الشهادة أيضاً يقظةً يقظة الحس لا يقظة النفس، ثم تقابل الرسول وتسأله عن المسائل والقضايا فيفتيك وانتهى الأمر. بالنسبة لهذه الطريقة، لا حاجة لكل الإشكالات السابقة، لأن الرسول حي وحاضر وهو في كل مكان أو قابل للظهور في كل مكان ولكل إنسان، ولقاء الرسول يكفي لحل الأمور التي تشكل على العارف. فيصبح العارف هنا برتبة صحابي.

ومن هذا القبيل مثلاً ما ذكره الشيخ ابن عربي في مقدمة فصوص الحكم أنه التقى بالرسول فأعطاه كتاب فصوص الحكم وقال له "اخرج به إلى الناس". فيكون ابن عربي هنا كما كان علي بن أبي طالب مثلاً حين أخذ سورة براءة وقرأها على الناس في الحج كما جاء في الرواية، مع فوارق طبعاً لكن الفكرة واحدة. وأمثلة كثيرة قديمة وحديثة عند الصوفية في هذا الباب. وكاتب هذه السطور قد ذكر شيئاً من ذلك في موضع ما أيضاً.

فأمور الدين تؤخذ من القرءان وما يفتح الله للإنسان في فهمه، وكذلك يتبع فيه الروايات من حيث حسن الظن بالمؤمنين وسؤال أهل العلم، فإذا أشكل أمر فلقاء الرسول يحلّه. فالرسول

حتى حين كان في الأرض، لم يكن كل مسلم في كل مكان يملك خطّاً مفتوحاً للتواصل معه في أي لحظة، بل بعض الأعراب كان يأتي يُسلم ويأخذ سورة ويتعلّم شيء من الفرائض ثم يتوكّل ولعله لا يلقى الرسول بعدها ولا يسأله عن شيء. فليس من الضروري للدين معرفة قول الرسول في كل تفصيلة وصغيرة وكبيرة، ومن أراد ذلك فالله كريم ويجمعه برسوله ويعرفه بالحق في الأمر.

وإن قيل: لكن هذا الطريق صعب وليس كل أحد يستطيع بلوغه. نقول: طريق معرفة الطب العلمي أيضاً صعب مقارنة بالطب الشعبي والخرافي لكنه أحسن منه، {والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا}، فدخول الجنّة بالجهاد والصبر.

وإن قيل: لكن هذه دعوى من الصوفي ولا يُسلّمها له بقية المسلمين. نقول: وصاحب الرواية أيضاً يدعي أنه سمع وأن الرسول قال، والمفتي يدعي بالنسبة للعامّي أنه درس وأفتى له بالحكم الشرعي، وهو لا يدري على التحقيق الواقع في نفس الأمر، لكن حسن الظن بمن ثبت إيمانه وهو أمر قرآني يجيز تصديق المؤمن في دعواه. فإن ثبت له إيمان مدعي لقاء الرسول وأخذه عنه، فأنت وذاك. وإن لم يثبت لك، فهذا مثله مثل بقية الأمور التي لم تشهدها في أمر الدين بل وأمر الدنيا لكنه تأخذها ثقة بمن لديك قرائن كافية للثقة بهم.

وإن قيل: لو كان بالإمكان لقاء الرسول لحل الخلافات فلماذا لم يظهر الرسول للصحابة حين اختلفوا. نقول: وما عسى أن يفعل بالظهور لقوم جلس بين ظهرانيهم أكثر من عشرين ونهاهم مباشرةً على ضرب رقاب بعض وبأمور كثيرة فلم يستجيبوا وفعلوا ما فعلوا، هذا جواب. جواب آخر، الصحابة لأخذهم عن الرسول ليسوا مثل الأمّة البعيدة العهد بالرسول، لذلك النبي خشي على الصحابة التنافس على الدنيا أكثر مما خشي عليهم الاختلاف في الدين، فالأمّة أحوج لذلك من الصحابة، والصدقات {للفقراء} لا للأغنياء.

وإن قيل: هذا يفتح باب للدجالين والكذابين والمشعوذين لادعاء الدعاوى العريضة بالتقاء الرسول مما يضرّ بالأمّة. نقول: والروايات والعلل وكل الأصول تؤدي أيضاً إلى ظهور دجالين وكذابين وظالمين ومجرمين وعبيد دينار ودرهم وعبيد حكام يلعبون بالدين كما يشتهون ويشتهي أسيادهم وقد فعلوا ولا زالوا يفعلون، وهذا لا يعني إبطال أصل الدراسة ولا أصل البحث في النصوص الدينية ولا أصل تفسير القرءان. كم من حامل شهادة من جامعة تزعم أنه دكتور وهو في الحقيقة ثور، تخرّج بالنصب وتوظيف غيره ليحل له واجباته ويختبر عنه، وهذا لا يعني إلغاء هذه المعاهد وإبطال قيمة الشهادات الجامعية. بل ادعى أناس كثر النبوة، فهل ننكر النبوة الصادقة بسبب النبوة الكاذبة. اختلقوا الكثير من الأحاديث ونسبوها للنبي، فهل ننسف قيمة كل الأحاديث بسبب الاختلاق في بعضها.

القول الخامس: الإمام المعصوم.

الفكرة هنا شيعية الأصل، وهي أنه يوجد إنسان يقوم بعد الرسول مقام الرسول، فلا يكون رسولاً لكن فيه شيء من عصمة الرسالة وسلطتها في التعبير عن الدين علماً وحكماً والقيام بدور المركز الجامع للأمّة حتى لا تتشتت وتختلف.

فهؤلاء سيقولون بكل ما مضى من أهمّية وجود الرسول، لكن سيقولون بعدها: بما أن محمد آخر الرسل، فلابد أن يكون بعده إمام معصوم يقوم مقامه في كل الأمور باستثناء الإتيان بوحي جديد كالقرءان أو يغيّر حلاله وحرامه الثابت، وتكون له بقية السلطات الرسولية.

هذا القول قوي جداً، والحق أن من عدا الشيعة أيضاً بحثوا عن إمام معصوم لكن اختلفوا في تعيينه ورسمه. فبعضهم جعل مفهوم "الأمّة" هو بديل الإمام المعصوم، وإن كان مفهومه هذا مبهماً ولم يتم إظهاره واقعاً. وبعضهم جعل القياس الصحيح هو الإمام المعصوم، أقصد القياس على الآية والرواية والعلّة، فجعل عقله أو مجموعة عقول المجتهدين الذين يرضاهم هي الإمام المعصوم بالتالي جعل رضاه أصل بعثة المعصوم وجعل العقول المجتهدة هي الإمام. وبعضهم جعل قلبه ونفسه المطهرة التي تأخذ عن الله وعن رسوله هو الإمام المعصوم بالنسبة له ولمن آمن به كولي. وإذا رأيت صلابة الفرق والطوائف في عقائدها ومذاهبها، وإن كانت لا تقوم بالإمام المعصوم، ستجد أنها تتحدّث وكأنها تملك الإمام المعصوم أيضاً لكن بشكل آخر.

مما يرد على هذا القول: اختلاف الشيعة أنفسهم، من أول يوم إلى اليوم، اختلافاً طويلاً عريضاً عميقاً. ويكفيك الاطلاع على كتاب يتحدث عن فرق الشيعة لترى ذلك. الزيدية فرق وهم لا يقولون بالإمامة كما يقوله غيرهم بكل التفاصيل وإن قالوا بحصر الإمامة في الفاطميين بشروط اختلفوا فيها، الإمامية كانوا فرق واليوم هم أيضاً فرق من حيث مسألة السفارة عن الإمام الغائب أو المدرسة التي تمثّل الإمام الغائب الأخبارية أم الأصولية أو مَن هو المرجع الذي يمثّل المدرسة الصحيحة، ثم الإسماعيلية أيضاً على فرقتين كبيرتين على أقلّ تقدير وعلى اعتبار الدروز منهم فهم ثلاثة وهكذا.

ومما يرد عليه أيضاً: أرونا حلول الإمام المعصوم لكل المسائل والقضايا العلمية والعملية التي في كتاب الله، ولندع ما سواه. المفروض أن يُظهروا للأمّة هذا العلم التي يبيّن الفهم الصحيح لكتاب الله، وكذلك كل إشكالية لابد أن يكون لديه عليها حجّة معتبرة تُرضي علماء الأمّة على الأقلّ، فقد جعل الله علماء بني إسرائيل آية وعلماء هذه الأمّة لن يكونوا أقلّ من علماء بني إسرائيل كيف ومثل هذه الأمّة هو كمثل بني إسرائيل {إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً} {فقد سألوا موسى} {فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل}، وقال النبي لعلي "أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا

نبي بعدي" فدلّ على أن النبي مثل موسى، بالتالي هذه الأمّة مثل بني إسرائيل. وعلى ذلك قوله تعالى {أولم تكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل}، وقوله في أصناف علماء بني إسرائيل {إنا أنزلناه التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار} فدل على ثلاثة أصناف من الذين يعلمون ويحكمون بالتوراة أي النبي والرباني والحَبر. حسناً. فليُظهر أصحاب نظرية الإمام المعصوم هذا العلم للأمّة حتى يعرفه علماء الأمّة وينظروا فيه. لكن الذي نجده، هو اختلاف في نفس تلك الفرق الشيعية فيما بينها، ثم نجد اختلافاً بين علمائهم في فهم مروياتهم ومسائلهم العقائدية والتفسيرية، وإذا دققنا سنجد الكثير من ذلك في كل مكان، وأما إذا دخلنا في تقييم مثلاً قائمة الأئمة الزيدية والأئمة الإسماعيلية مثلاً فسنجد أموراً في بعضهم أقلّ ما يقال فيها أنها مجلبة للشك أو داعية للريب أو موجبة للحذر، وعلى كل حال لن نجد فيها نصاعة المثال الرسولي الذي من المفترض أن يمثلونه بل بعضهم تُروى عنه أفاعيل واستئثار بالدنيا وطغيان وتأسيس للجهل لعل الكافر يستحي منه.

ويرد عليه أيضاً: اختلاف الشيعة في وصف الإمام بالعصمة. بل ووصف الرسول بالعصمة هذه التي يتحدثون عنها أيضاً أمر فيه اختلاف وظاهر القرءان بخلافه من {وعصى آدم ربه} إلى {يغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر}. ومن أراد فرض عقيدة العصمة على القرءان بعد كل تلك الآيات، فأعلى ما يقال بأن هذا رأيه وهو غير ظاهر ولا مُلزم للكل، فإن شاء اعتقاده فليفعل، لكن ليس له بعد تلك الظواهر الكثيرة الادعاء بأن ما يقوله واضح وضوح الشمس في رابعة النهار.

فلنبدأ إذن، بعرض ثمار كلام الإمام المعصوم المدعى من أي فرقة على كتاب الله، فكلهم الشيعة يقرون بحديث الثقلين والذين فيه ترك الرسول لكتاب الله وعترته أهل بيته، ثم يختلفون في تعيين هذه العترة وإن اتفقوا على الجملة على علي بن أبي طالب، ومن بعده وقع الاختلاف، فمنهم من جعلها في الحسن والحسين وكل أولادهما، ومنهم من جعلها في بعض أولاد أو فروع الحسين فقط. لكن هذا الحديث نفسه، فيه تقديم كتاب الله، وأنه الخليفة الأكبر والثقل الأكبر. بالتالي، ويروى عن علي قوله {سلوني عن كتاب الله} وبيّن علو علمه به. حسناً. لنبدأ من هنا، أي من رؤية بيان الإمام المعصوم لكتاب الله وتنزيله على قضايا عصرنا وأفراد زماننا.

ثم بعد ذلك، لابد من قيد آخر وهو مثال النبي ومثال علي. بدءاً من الحكم، فإن النبي جاء بالاختيار لا بالاجبار، وعلي جاء بالاختيار لا بالاجبار، فلابد أن يكون أي إمام يدعي النسبة لهما أن يأتي كذلك بالاختيار لا بالاجبار ولا تكون ممارسته جبرية. ثم بعد ذلك، اختيار الفقر

والتنزه عن الدنيا والعيش كأوسط أو أدنى ما يعيشه الناس في زمانه. وعلى هذا النمط. لكن يكفينا مبدئياً ميزان القرءان.

هذه خلاصة الأقوال الخمسة في المسألة.

أسرعها، وأنظفها، وأدقّها هو القول الثاني، يعني أن الفرد يأخذ بما يعقله من كتاب الله في نفسه، والأمّة تأخذ بما تقضي به الشورى العامّة في أمرها.

أما الحاجة لرسول جديد: وإن كان أمراً بيد الله وله أن يبعث من يشاء كما يشاء، وليس في كتاب الله ما يمنع ذلك كما فصّلناه في مواضع كثيرة، إلا أنه ليس لنا أن نحكم على الله تعالى ببعثة رسول بالمعنى الخاص للرسول كما هو مشهور. هذا أمر. والأمر الآخر، بناء على القول برسولية العقل للفرد والشورى الأمّة، فلدينا رسل جدد بالفعل.

وأما القياس على القديم: فيمكن استعمال القديم والموروث كله بناء على اعتماد القرءان وحده كأصل للدين، واعتبار الموروث كله مطلقاً بدون استثناء موروث فرقة من فرقة هو نوع من الحوار والبحث في كتاب الله وفهمه وتطبيقه، فنكون أكثر قبولاً لكل ما بأيدي الأمّة من جميع فرق الأمّة. هذا أمر. والأمر الآخر، القرءان "قديم" ونحن نأخذ أمر الله منه ونقيس على حقائقه وكلياته ونطبّق جزئياته بحسب ما نفهمه منه ونرى أنه الأحسن والأسلم والخير. وأمر ثالث أن النبي في الرواية وعد على التمسّك بالقرءان الهداية وكل خير في الآخرة والأولى وعند الله، والروايات في هذا عن علي والصحابة أيضاً كثيرة كلها تشير إلى نفس المضمون.

وأما لقاء الرسول: فالقرءان رسول {أنزلنا إليكم رسولاً. ذكراً} {والقرءان ذي الذكر} {أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به} وقال {نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرءآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين} بالقرءان صار محمداً رسولاً ونبياً، فالقرءآن رسول الرسول إن شئت، والآيات في هذا المعنى كثيرة. هذا أمر. وأمر آخر، لقاء أهل القرءان كلقاء رسول. وأمر ثالث، إن حدث لك وفتح الله لك بلقاء رسول الله في عالم الغيب أو أي رسول أو مَلك أو حتى لقاء الله، فبها ونعمت وهذا حق بالنسبة لك تمسّك به. لكن الذي أنزله الله إلينا، {أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون} لاحظ {إليكم} هو هذا القرءان.

وأما الإمام المعصوم: فأوّل معصوم وهو النبي وبعده علي قد أمرا الناس بالتمسك بالقرءان. هذا أمر. وأمر آخر، الإمامة تابعة للقرءان وهي الثقل والخليفة الأصغر، فلا نترك الأكبر المتيقن منه للأصغر المشكوك المختلف فيه. وأمر ثالث، الإمامة علم وحكم، فليُظهر إمامته بإظهار علمه وحكمه ثم مَن شاء أن يتبعه فليفعل، يُظهره فيما يتعلق بكتاب الله أولاً، فإذا كانت

الأمّة كلها متمسكة بكتاب الله وهي الدعوة التي ندعو بها ويصلّون الصلاة القرآنية بانتظام وعلى الدوام، فحينها حين يظهر إنسان لديه علم أعلى بكتاب الله ويبيّن ذلك لهم تبييناً تاماً فإنهم سيحبونه ويتبعونه بسبب محاسن كلامه وعمق علمه ورفعه الإشكالات التي مرّت عليهم أثناء قراءتهم ودراستهم. وأمر أخير نختم به، وهو أنه الرسول فمَن دونه لا يحق له ولم يدع أن له الحق في أن يُكرِه الناس في الدين أو في أمر دنياهم نفساً ومالاً فالشورى حق بدين أو بدون دين وهي لأهل القرءان أحق وأولى، فإن جاء الإمام المعصوم وأقنع الأمّة في علم أو في حكم أو في رئاسة فهو وذاك وإلا فهو مجرم طاغية وليس إماماً ولا معصوماً {لا ينال عهدي الظالمين}.

الحاصل: أولى الأقوال بالاتباع والمشتمل على كل خير وحجّة في الأقوال الأخرى، هو القول بأن كل فرد عليه أن يقرأ القرءان لنفسه وهو الحجّة له وعليه، وعلى الأمّة أن تتحاور في العلميات بحرية وتتشاور في العمليات بسلمية، ثم إلى الله مرجعنا وإليه المصير.

تكملة: في كتاب الله يوجد أمر الرسول أيضاً. فإننا إذا نظرنا سنجد أن الأمر مرّة يأتي من الله مثل {أقيموا الصلاة}، لكن في غيرها يأتي بواسطة الرسول مثل {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله} فالقائل هنا {لا تقنطوا} هو الرسول عن أمر الله له {قل}. بالتالي، تابع كتاب الله، هو تابع لأمر الله وأمر الرسول، ولا يقال بأنه خالي عن أمر الرسول، بل كتاب الله هو ما بلّغنا إياه رسول الله وللأمّة كلها، وليس عبر راو أو عشرة أو مائتين، ولا عبر قياس ذهني، ولا عبر جماعة سرية لديها أسرار الكتاب، ولا عبر السفر لعالم الغيب لأخذ القرءان منه، ولا عبر انتظار قدومه إلى الأمّة. فقد جاء وبلغ الكتاب وهو الآن بين أيدينا بحمد الله وشكر رسوله. وفيه نجد أمر الله وأمر رسوله أيضاً برواية إلهية إن شئت.

...

د-لعن الله إبليس لأنه فاضل ما بين النار والطين، وكان هذا أوّل أسباب لعنه. فلم ينظر إلى النفس والروح، ولم ينظر إلى أمر الله، بل نظر فقط إلى الهيئة والصور. وهذا الأمر ينطبق على الصلاة والمصلّين. قال الله {لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا} وقال {لكل أمّة جعلنا منسكاً}، وهكذا أقرّ تعدد الشرائع والمناهج والمناسك، لأن المقصد منها كلها هو {لتذكروا اسم الله} وما يتبع ذلك من أمر العلم بالآخرة، وجعل النفس شاكرة لله. فخلاصة الحكمة الإلهية في الذكر والشكر. ذكر الله والشكر له {آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله} وبيّن أن الشكر للنفس لأن فيه

تنوير وتكميل لها وإسعاد لها في الآخرة. ومنع الله من المجادلة في الصور بعد ثبوت الجوهر حين قال {فلا ينازعنّك في الأمر} وبعدها {وادع إلى ربك} المقصود إرجاع النفوس لربها، {يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك}.

كذلك الأمر في الصلاة. قال الله في جميع المخلوقات {كُلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه}. فدلّ أن الصلاة والتسبيح حقيقة واحدة كلّية، لكن لكل مخلوق صلاته وتسبيحه الخاص به أيضاً. فلا تعارض بين الكلّي وجزئياته، بين الجوهر والصور. هذه سنّة كونية والإسلام العالمي. وأثبت الله نفس هذا المعنى للأمم، {لكل أمّة جعلنا}.

لأن الإنسان بالأصل فرد مستقل فهو أمّة وحده {إن إبراهيم كان أمّة}، فهذا من وجه. ومن وجه آخر هو فرد في جماعة {إن هذه أمّتكم أمّة واحدة} {وقال إنني من المسلمين}. فسنرى أن للصلاة والتسبيح أيضاً وجهاً فردياً هو الأصل، ووجهاً جماعياً هو الفرع. ومن هنا صلاة الفرد وصلاة الجماعة، فقال في التهجد {وطائفة من الذين معك} فأثبت معية طائفة للنبي في تهجده ونافلته، فهذا من صلاة الجماعة. وقال إبراهيم {رب اجعلني مقيم الصلاة} وقال الله {عليكم أنفسكم} فهذه صلاة الفرد. بالتالي، قوله {أقم الصلاة} فردية، وقوله {أقيموا الصلاة} جماعية. فتمّ الأمر من الوجهين.

الصلاة تكون بقراءة كتاب الله. هذا جوهرها، روحها. ثم كل نفس ستعمل ذلك بنحو يتناسب معها. وأما بالنسبة للجسم، والهيئة البدنية، فهذا أمر فيه تختلف ألوانه وإن كان الماء واحد {يُسقى بماء واحد ونفضّل بعضه على بعض في الأُكُل}.

{أرأيت الذي ينهى. عبداً إذا صلّى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى}. فهذه الصلاة بوجهها الفردي والجماعي. لأن {كان على الهدى} صلاته كفرد، وقوله {أمر بالتقوى} هو صلاته مع جماعة من حيث قراءته عليهم وأمرهم ونهيهم، {أصلاتك تأمرك أن نترك} {إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر} فالصلاة فيها أمر ونهي، وذلك القرءان يأمر وينهى مَن يعقله ويفهمه.

الآن، الأبلسة أن يقع النزاع بين الناس بسبب صورة الصلاة، فهذا يقول "صلاتي أفضل لأن هيئتي نارية" وذاك يقول "بل صلاتي أنا أفضل لأن هيئتي طينية"، واملأ ما شئت بدلاً من كلمة النار والطين في هاتين العبارتين.

ردّ الله على كلام إبليس بثلاث طرق. أحدها {أن تكون مع الساجدين} والثاني {خلقتُ بيديّ} والثالث {إذ أمرتك}.

{تكون مع الساجدين} تدل على وجود إجماع لهؤلاء الساجدين، وإبليس لا يريد أن يكون معهم بل يريد التميّز عنهم بأمر يخصّه يناقض ما هم عليه. بالنسبة للصلاة، الإجماع القائم يتعلق تحديداً بقراءة القرءآن الأوقات المحددة فيه، فهذا القدر مجمع عليه عند المسلمين. فمن زاد على ذلك وناقض وحارب مَن اكتفى بالقدر المجمع عليه، وبدأ يفاضل بين الصور والهيئات ففي خصلة من إبليس، وسيُلبّس على نفسه وغيره ويُحدث فرقة في أصل الدين الواحد لا يمكن حلّها إلا باعتبار بعض الناس في الدين وبعضهم خارج الدين الحق والخالص.

{خلقتُ بيدي} يد المُلك ويد الملكوت، "بيده الملك" و "بيده ملكوت". الصلاة القرآنية فيها ملك وملكوت، ظاهر الكلام وباطن المعنى. لكن الصلاة التقليدية الطاغي والغالب عليها الظاهر فقط والظاهر فيها مقصود لذاته عند أهلها.

{إذ أمرتك} هذا أمر الله المباشر للمؤمنين والمؤمنات، ونجده في كتاب الله، وهو الصلاة القرآنية فهي أمر الله لنا. فمن أقامها فقد أقام ما أمره الله به. وأما بقية تفاصيل الهيئات صورية فلا تستطيع أن تقول أن الله أمرك بها مباشرة كما تستطيع أن تقول أنه أمرك مباشرة بالصلاة القرآنية في كتابه، بل لابد من أن تنسب الأمر الظاهري الإضافي إلى فلان وعلان ممن نقل لك أو استنبط لك ذلك التفصيل بدون أن يقدر لا هو ولا أنت على معرفة أين هو في كتاب الله. فأقلّ ما يقال هو أن الصلاة القرآنية من تجليات {إذ أمرتك}، لكن الصلاة التقليدية دون ذلك في الظهور والبيان.

بالتالي، المصلّي الصلاة القرآنية هو مع الساجدين، حتى في الآية لأنه يكون على طريقة الملائكة والروح من حيث أن صلاته نفسية روحية عقلية نورية، وكذلك من حيث كونه يعمل بالقدر المجمع عليه من أتباع كلام الله. وهو يصلي صلاة ملكية ملكوتية من حيث تلاوة الكلمات وتعقل المعاني. وهو يطيع أمر الله المباشر في كتابه المنزل الذي بلغه رسول الله للأمّة، وأحسن رواية على وجه الأرض لا تبلغ ولا ذرّة من قوّة نقل أقلّ حرف في كتاب الله.

الحاصل: على هذه الأمّة أن تعود إلى سنّة الملائكة في طاعة أمر الله، وتدع سنّة إبليس.

...

هـ- الاعتقاد بأن معنى {الصلاة} في كتاب الله لا يمكن فهمه من كتاب الله، يؤدي إلى أمور كثيرة سيئة من أكبرها أنه يفسد نظام الدلالة الذاتية في كتاب الله.

مما نعرفه ذوقاً وتجربةً هو أن القرءان يبيّن بعضه بعضاً، وهو مفصّل في نفسه، ويوجد تناظر وتوازي بين آياته ومواضيعه يكشف بعضها بعضاً ويبسط بعضها ما قبضه البعض الآخر. لكن لابد من الصبر والاستفتاح والمجاهدة لمعرفة هذه المعاني من داخل القرءان. وأما الذي يعتقد بأن معنى الصلاة غير مفصّل في كتاب الله، ففضلاً عن أنه قول بغير علم ولا هو أصلاً جرّب البحث بتجرّد ودراسة حرة غير مقيّدة بإرادة فرض رأي مذهبه على القرءآن، فهذا يعني أنه بحاجة إلى أمر من خارجه، وما هو من خارجه بالنسبة لهذا سيكون الروايات التي ذكرنا ما فيها من معايب وخلل يجعلها أدنى من أن يفتقر إليها القرءان على فرض إمكان افتقار القرءان إلى غيره.

هذه تجربة لمن يريد الفصل في ما نقوله: افترض أن القرءان كتاب لا علاقة دينية لك به، بل هو كتاب مثل أي كتاب آخر على الأرض يمكن دراسته والنظر فيه بناء على تركيبه ودلالته اللغوية. ثم اجلس واجلب أحسن معاجم وكتب اللغة العربية لأن القرءان {بلسان عربي مبين} فلابد أن تعرف اللسان وهذا بديهي. ثم اجمع علماء العربية، واجعلهم يدرسوا النصّ القرآني بقصد النظر في مسألة الصلاة وتفاصيلها ومعانيها بحسب طرق تفسير النصوص عموماً، عبر جمع الآيات المتعلقة بالموضوع، وتفكيك مفرداتها، والنظر في علاقة النصوص بعضها ببعض. ثم بعد القيام بذلك، انظر في النتيجة واحكم بنفسك.

...

و- تركيز فقهاء الروايات على الدنيا وإرادتهم إقامة دولة ذات قوانين جبرية وأحكام حسّية بحتة هو ما يعيق النفس عن التفقّه في كتاب الله على ما هو عليه.

همّ أصحاب المذاهب هو إنشاء قانون، وليس شريعة. والمقصد هو الحكم المادي في الدنيا، لا النجاة النفسية في الآخرة. وحلمهم وجود دولة تفرض آرائهم القانونية على العامّة أو على الأقلّ تسمح لهم بفرض آرائهم على العامّة في منطقتهم.

الذي يدرس مسألة الطاعة في القرءان، سيجد أنها من اسمها، طاعة، لا إكراه فيها. {أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حُمّل وعليكم ما حُمّلتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين} فهذا في طاعة الله وطاعة الرسول، فما بالك بمن دونه. ولم يقل "فإن تولوا فاحبسهم واقتلهم وافعل بهم الأفاعيل" كما صار فقهاء الدولة يحكمون ويفعلون. كل الآيات مبنية على هذه الطريقة، والاستثناء الوحيد الذي ما هو استثناء هو القضايا التي فيها عدوان على النفس والمال وقتال للقول والدين فيُردّ على صاحبه عدوان مثله

عدلاً. لكن بشكل عام الأحكام في القرءان غير مبنية على طريقة أصحاب القوانين والدول، بل مبنية على الاختيار الحر للأفراد بعد معرفة وقناعة وإدراك للأبعاد الأخروية للأحكام القرآنية الرسولية.

خذ مثلاً، آيات الميراث. لا يوجد فيها إلا {يوصيكم الله} وبعدها وعد بالجنة ووعيد بالنار. فلا يوجد فيها إجبار دولة للناس على تقسيم الميراث بهذه الطريقة. والأمثلة كثيرة. دقق في هذا الأصل في كتاب الله حتى تعرف لماذا إذا رجعنا إلى كتاب الله سنحتمل التعددية والاختلاف في الأمّة، بينما إذا بقينا على طريقة المذاهب والعقائد فالنتيجة ستكون هي عين ما كانت ولا زالت عليه الأمّة عموماً من طغيان الدولة ومذهب واحد على البقية أو في أحسن الأحوال تمنّي إتيان دولة تطغى بالمذهب على البقية. إرادة توحيد الأحكام جوهراً وصورةً أو حصرها في صور معدودة ونطاق محدد، غرضه صنع قانون.

ومن أبرز أمثلة تقنين الشريعة هذا هو أنك لا تجد في كتاب أمراً إلا وهو مرتبط بأمور علمية وروحية وإلهية وأخروية كل ذلك أو بعضه. الحكم دائماً مقترن بعلم، ومفصّل بتذكير وأمثال وأبعاد معنوية. لكن القانون ليس كذلك، القانون افعل ولا تفعل، بدون تفسير ولا تعليل، يخاطب الإرادة ولا يخاطب العقل، بل القانون يخاطب الحس ويجبر الإرادة بالحس عبر التخويف بالعقاب على يد البشر أو الترغيب بعطايا مالية أو دنيوية أو تيسير أحوال اجتماعية. الشريعة ليست كذلك. ادرس الشريعة من كتاب الله، حكماً حكماً، وراجع كتابي (الشريعة القرآنية) إن شئت كمجرّد فهرسة لكل الأحكام الواردة في كتاب الله، ولم أشرحه بعد بل ذكرت الأمر مجرداً مثل {فصلّ} من الكوثر ٢، و{قل} من الإخلاص ١ وهكذا في القرءان كله. اذهب واقرأ وانظر ما العلاقة بين الأمر وبين الخبر والفكرة والكشف والعلم وأسماء الله والعاقبة في الآخرة. وإن شئت، افتح الآن القرءان واقرأ أي سورة وانظر، ولن تجد سورة فيها أمر إلا وفيها فكر وخبر وعلم، لكن قد تجد سور وآيات كثيرة كلها معلومات ليس فيها أمر ولا حكم واحد. هذه العقلية القرآنية والكرامة النفسية والاعتبارات الأخروية، هي الغائبة عن ملل أصحاب القوانين من المذاهب الإسلامية، الذين حوّلوا الشريعة إلى قانون بحت لابد من تقليده وبدون معرفة حقيقته العقلية وعاقبته الأبدية ولا اعتباراته الباطنية ولا شيء مما يقوم عليه دين القرءان. فتحوّلت الأمّة إلى عامّة من المقلّدة وقلّة من المقننين الدنيويين، وبعبارة قرآنية مُسخَت إلى قردة مُقلّدة وخنازير لا ينظرون إلى السماء ويعيشون في مستوى الحس البحت، فالمقلّد كالقرد والمجتهد كالخنزير. طريقة الشريعة القرآنية تتعارض جوهرياً مع طريقة القوانين المذهبية الإسلامية. وهذا عين ما حدث في الصلاة.

قد يقال: الفقه الإسلامي يبيّن الجانب الجسماني العملي، وهذا من باب التخصص. لكن توجد علوم أخرى تخصصت في شرح المعاني الروحية والباطنية للصلاة الجسمانية. بمعنى، تم تقسيم الشريعة إلى جسم وروح، فالجسم يُبحَث في الفقه، والروح يُبحَث في التصوف مثلاً أو كتب الرقائق وما أشبه.

أقول: أوّلاً، لو كان هذا الكلام صحيحاً، لوجب أن نجد الأمّة عموماً ممن يقيم الصلاة الجسمانية، أيضاً قد تم تفقيهه في الصلاة الروحية والعقلية، وهو يعرف تفاصيل هذه الحركات والألفاظ والعبرة الباطنية والروحية منها. وأحسب أن هذه دعوى عريضة جداً، لا يصدّقها لا الواقع المشهود، ولا حتى علماء هذه الطوائف أكثرهم يعرف ذلك، حتى صار عندهم من المسلّم القول "هذه أمور تعبّدية" ويقصدون بأنها أنها أمور "غير معقولة المعنى". فالتعبّد عندهم هو بالأمر غير معقول المعنى ! تعبّد بعدم العقل، تعبّد بالجهل. بل صار بعضهم يرى أن تعقّل المعنى يجعل النية غير خالصة لوجه الله في إقامة صورة العبادة، لأن الإنسان حينها يكون تابعاً لعقله وليس تابعاً لأمر الله. سبحان الله، هذه من ثمار الشجرة الخبيثة والملعونة للفرق التي هجرت كتاب الله. ومنذ متى كان العقل منفصلاً عن أمر الله، واتباع العقل بُعداً عن الله، وهل هلك الهالكون إلا بعدم العقل. صار الجهل عندهم مقدساً.

ثانياً، ما أشدّ الإنكار الذي قام به ولا يزال يقوم به أكثر أصحاب هذه المذاهب على الذين يبحثون ويقررون المعاني الباطنية للصلاة وتفاصيلها، والحرب بين الفقهاء والصوفية أمر قديم، والحرب بينهم وبين الباطنية والطرق الرمزية أمر مستمر، وإن لم يكن حرباً فسخرية واستهزاءً.

ثالثاً، نفس التفريق في البحث في الحكم ما بين صورته وروحه هو بحد ذاته نوع من الخلل الذي حدث في الدين، بل الإفساد فيه.

من أمثلة ما ذكرناه في الصلاة من كتاب الله، ونذكر إن شاء الله على سبيل الإشارة العابرة وليس التحقيق والتفصيل.

١-قال تعالى {وقرءان الفجر إن قرءان الفجر كان مشهوداً} فالأمر بإقامة قرءان الفجر حكم، فما علمه؟ علمه {إن قرءان الفجر كان مشهوداً} فهذه معلومة، من عرفها سيدرك أهمّية إقامة قرءان الفجر. هذا في الفريضة.

٢-في النافلة قال {ومن الليل فتهجد به نافلة لك} لماذا؟ {عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً}. ثم زاد الأمر تفصيلاً في المزمّل فقال {قم الليل إلا قليلاً} ففصّل الوقت {نصفه أو انقص منه قليلاً. أو زد عليه} فهذا بالنسبة لوقت النافلة، ثم فصّل العمل في القيام فقال {ورتّل القرءان ترتيلا}. حسناً، هذا كله عمل وحكم، فأين العلم والعقل، ما الحكمة من ذلك؟ قال بعدها

مباشرة {إنا سنُلقي عليك قولاً ثقيلاً}. وأمور أخرى مفصلة لكن كما قلنا هذه إشارات لطريقة القرءآن في الشريعة.

٣-في الصلاة عموماً قال {وأقم الصلاة} هذا حكم، فما علمه؟ ما علّته؟ قال بعدها {إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر}.

٤-قرن الصلاة بالخشوع، {الذين هم في صلاتهم خاشعون}، لكن كيف يحصّل الإنسان الخشوع وهو شعور والشعور فرع لا يستطيع إنسان أن يستجلبه بالإرادة؟ بيّن ذلك في آية أخرى حين قال {استعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين. الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون} فالذي يظنّ أنه ملاقي ربه وأنه إليه راجع، هذه الحقيقة العلمية والمعلومة العقلية، من عرفها وتذكرها وشهد حقيقتها بنحو ما من الشهود، فإن أثر ذلك على نفسه سيكون الخشوع.

وعلى هذا النمط، جمع كل آيات الصلاة، وما يتصل بها والنظر إليها كوحدة واحدة، ذات دلالات متكاملة ويفصّل بعضها بعضاً، هو فقه الصلاة، والذي فيه الحكم والعلم معاً.

لكن ماذا يحدث حين يريد شخص من خارج القرءان من أصحاب المذاهب أن يفرض رأياً على ما يقرأه؟ خذ هذا المثال الذي قرأته لمفتي سُئل عن مصدر الصلوات الخمس في القرءان. فقال ما يلي وأنقله حرفياً:

[ثمّ ذكر أوقاتها فقال: ﴿صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾[٢] وقال: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾[٣] وهو زوالها يعني صلاة الظهر وقال: ﴿وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾[٤] وهو صلاة العصر وقال: ﴿وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ [٥] وهو صلاة المغرب؛ لأنّ الزُّلْفَةَ هي الطائفة من أوّل الليل وقال: ﴿صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾[٦]]

أقول: الآية التي تذكر {صلاة الفجر} و {صلاة العشاء} من القرءان، من آية العورات.

وذكر آية {الدلوك الشمس} أيضاً من سورة الإسراء وفيها نصّ على الصلاة في أولها {أقم الصلاة لدلوك الشمس} لكنه قطع ما بعدها ولم يكملها {إلى غسق الليل} ولم يبحث أصلاً في معنى ذلك ولماذا الآية تظهر على أنها تدل على وقت واحد وقد نقل هو نفسه قول الله {صلاة العشاء} لكن لأنه يفهم من {العشاء} معنى غسق الليل تحديداً أي العشاء الآخر لأنه يوجد عشاء أول يبدأ من دلوك الشمس وهو كما اعترف زوال الشمس أو بما يعرف في فقه الروايات بصلاة الظهر، ولم يخطر بباله ولا هو سأل وبحث: لماذا سمّى الله صلاة الفجر وصلاة العشاء

ولم يقل لنا صلاة الظهر وصلاة العصر وصلاة المغرب؟ هذا لا يخطر بالبال، بل انتقل مباشرة إلى بحث "السنة" ودخل في الروايات.

لكن الأهمّ لاحظ ماذا فعل بآية ق ٣٩، التي فيها كلمة {قبل الغروب} فاعتبر هذه "صلاة العصر". وقرنها بالصلاة. هل هذا استنباط ضروري من القرءان؟ تعالوا نقرأ الآية كاملة. الآية تقول {فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب} فاعتبر هذا المفتي أن كلمة {سبح بحمد ربك} تعني الصلاة، لماذا؟ ضع هذا السؤال في بالك قليلاً.

ثم ذكر آية هود ١١٤ لكن اجتزأ منها {زلفاً من الليل} واعتبر هذا "صلاة المغرب" على أساس أن "الزلفة هي الطائفة من أول الليل". فماذا تقول الآية؟ {أقم الصلاة طرفي النهار وزُلفاً من الليل إن الحسنات يُذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين}. فهذه الآية في الصلاة نصاً.

فبهذا اكتمل لديه خمس صلوات، الفجر والعشاء نصاً، والظهر والعصر والمغرب استنباطاً. أقول: مبدئياً، إن صحّ هذا الاستنباط، فيكون القرءان فيه تفصيل الصلوات الخمس من حيث الوقت، وهذا جميل جداً، ويسقط به قولهم أن القرءان لم يفصّل الصلاة وأحالنا على الروايات. ويبقى عليهم الإجابة عن سبب تفصيل القرءان-على قولهم-أوقات الصلاة على خمسة أوقات، مع عدم تفصيل ماهي الصلاة نفسها كما فصّل الأوقات؟ فهل القضية لعبة أم ماذا؟ الصلاة عمل ووقت، فها قد جاءوا بالوقت، فأين العمل؟ هذا عليهم، وهو حجّة لأهل القرءان.

لكن لنرجع إلى جعله {سبح بحمد ربك} تعبيراً عن الصلاة. إن صح هذا، فتعالوا ننظر في مواضع ورود هذا الأمر الأخرى، لنرى هل توجد صلوات بعددها. ورد هذا الأمر في ستّ مواضع.

الأول {فسبّح بحمد ربك وكن من الساجدين} أقول: وهذا مطلق غير مرتبط بوقت. ثم إن كان نفس الأمر {فسبح بحمد ربك} يتضمن كل أفعال الصلاة التقليدية، فلماذا أمره بعدها بأن يكون {من الساجدين} وهذا بديهي لأن السجود موجود في الصلاة التقليدية، فلم يقل له وكن من الراكعين وكن من الذاكرين وكن من الراكعين ولا أي جزئية أخرى من الصلاة التقليدية؟ سؤال للنظر. نكمل إن شاء الله.

الموضع الثاني {فاصبر على ما يقولون وسبّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبّح وأطراف النهار لعلك ترضى} أقول: لابد أن يكون لدينا حسب هذه الآية على الأقلّ ستّ صلوات تقليدية، لأن قوله {قبل طلوع الشمس} واحدة، {وقبل غروبها} ثانية، وقوله {ومن آناء الليل} ثالثة وإن كانت كلمة "آناء" هنا تشير إلى أكثر من آن يعني أكثر من صلاة، وقوله {وأطراف النهار} الأطراف ثلاثة فما فوق مما يدل على وجود ثلاث صلوات، صلاة

لكل طرف من أطراف النهار، فهذه خلافاً لقوله "طرفي النهار" فثنّى. فإذا كان {قبل طلوع الشمس} هو صلاة الفجر حسب التقسيمة الخماسية، وقوله {قبل غروبها} صلاة العصر، وقوله {أطراف النهار} يشمل طرف الزوال فيكون صلاة الظهر، فما هما الطرفان الآخران للنهار وقد فرغنا من ذكر الفجر والعصر من قبل في الآية؟ ثم قوله {آناء الليل} بالجمع وليس بالتثنية، فإن جعلنا المغرب والعشاء من آناء الليل، فما هي الصلاة الثلاثة التي من الليل؟ طبعاً كل هذا لم يخطر ببال الأخ المفتي الذي لا يبالي كثيراً بالقرءان وهمه فقط أي دليل "استئناس" يعزز ويفسّر به مذهبه.

الموضع الثالث، {وسبّح بحمد ربك بالعشي والإبكار} فهل لدينا صلاة عشي، وصلاة إبكار؟ ما هو العشي بالضبط هل هو الظهر أم العصر أم المغرب أم ماذا؟ هل الإبكار هو الفجر أم هو شيء آخر، وإن كان هو الفجر فلماذا تغيير الأسماء؟

الموضع الرابع، هو ما ذكره، {سبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب} واعتقد أنها في الفجر والعصر، لكن {قبل الغروب} شيء وما يقال في وقت العصر تحديداً شيء آخر حسب ما يفصّلونه في المذاهب من ظلّ الشيء ومثله واصفرار الشمس وما إلى ذلك، بينما في القرءان {قبل الغروب} لا تدلّ حصراً على ما ذكروه، فهذا التساهل في نسبة قول للقرءان هو أيضاً أثر من آثار اللامبالاة والتسرع الذي لأهل المذاهب عادةً الذين إما لا يرجعون إلى كتاب الله وإما يرجعون إليه كمصدر بين مصادر ولعله الأقلّ حظّاً منها والمحكوم عليه أكثر من كونه الحاكم الأعلى في بيان ذاته فضلاً عن بيان غيره.

الموضع الخامس، {سبّح بحمد ربك حين تقوم. ومن الليل فسبّحه وإدبار النجوم} فما معنى {حين تقوم}؟ هل توجد صلاة القيام؟ أي قيام؟ ثم هل {فسبّحه} أيضاً يعبّر عن صلاة من الصلوات التقليدية؟ فلابد أن يكون ثمّة صلاة {من الليل} ما هي؟ وما معنى {وإدبار النجوم} فهل توجد صلاة إدبار النجوم أيضاً على فرض أن التسبيح هو الصلاة ذات الحركات والألفاظ المعروفة؟

السادس والأخير، قوله {إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبّح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً} فهل هذه صلاة الفتح؟ لأنه أمره بالتسبيح على إثر النصر والفتح ودخول الناس، فلابد أن توجد صلاة خاصة على قولهم تتعلّق فقط بهذه الأمور الثلاثة التي ذكرها الله، فهل سمعتم بها في الفرائض؟

الحاصل: اعتقاد كون {سبح بحمد ربك} دالاً على الصلاة المفروضة التقليدية، هو مثال ممتاز على العبث بالقرءان الذي لا يبالي به أصحاب المذاهب ويلقون الكلام على عواهنه ويفسّرون برأيهم كتاب الله ويفرضونه عليه فرضاً ويحسبونه هيّناً وهو عند الله عظيم.

فبدلاً من الاقتصار على أخذ الآيات التي ذكرت الصلاة، اعتبر بدون تحقيق أن التسبيح بحمد ربك هو الصلاة، هذا الافتراض الأول. ثم افترض أن كلاهما يدل على الصلاة بصورتها المشهورة، وهذا الافتراض الثاني. ثم لم يبالي بما ورد في الآيات بل قصّ ولصق ما يشاء كما يشاء حتى يرقّع مذهبه بقطع من الآيات وافترض أن هذا صواب والقرءان معه، وهذا الافتراض الثالث. هذا مثال فتأمله واعتبر به. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

....